مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الشعراء

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الشعراء

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ
عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ
مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾

ابتدأت سورة الشعراء بِمْثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، قال تعالى ﴿ طسٓمٓ ﴾ وهي ثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام خمسة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعـوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢]

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

(٢) المرجع السابق (١/١٠٩)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب معناه عنها، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[1] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن افتتح الله تعالى سورة الشعراء ببعض الحروف المقطعة لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، بما يثبت أنه من عند الله تعالى، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ينتقل البيان من الله العزيز الحكيم إلى بيان وتأكيد وضوح كتابه القرآن الكريم وضوحاً بيناً إلى درجة الإعجاز في فصاحته وبلاغته، ووضوح معانيه ودلالاته، وجميع هديه المستقيم ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ فبدأ باسم الإشارة ﴿ تِلۡكَ ﴾ التي تشير إلى آيات القرآن الكريم ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ والكتاب هو القرآن العظيم، فوصفه سبحانه وتعالى بالكتاب ﴿ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي: الواضح من كل وجه، ودلالة المبين تفيد الإظهار. وهو من أبان وأظهر. وقد استجمعت لفظة ﴿ ٱلۡمُبِينِ ﴾ كمال صفة الوضوح، الذي انتفى به النقص، والغموض، والخلل، فاستحق كمال الثناء، لحقيقة ما تضمنه القرآن الكريم من قوة البيان، وجزالته، وبلاغته، ومضمونه وأهدافه، وأحكامه، وتشريعه الذي استوفى حاجة العباد بأعلى غاية الوضح. فهو متضمن للإبانة التامة لفظاً ومعناً وسياقاً، فقد انتفى الخلل والتعارض والاختلاف والاختلال والنقص عن هذا الكتاب العظيم، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه.

ثم يتجه الخطاب والبيان الكريم إلى رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم، بما يسليه ويربط على فؤاده من شدة حرصه على إسلام قومه والناس أجمعين ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ فلعلك مبالغ في حرصك على إسلام قومك. فلا تُهلك نفسك أيها الرسول، وتحملها مالا تطيق من أجل إسلامهم. وقد ورد التوجيه الكريم بأسلوب غاية في البيان ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ ﴾ فلعلك مهلك وقاتل نفسك من شدة حرصك على إسلامهم، مما يدل على أمرين: الأول: كثرة المعاناة المبنية على الحرص، والأمر الثاني: متعلق بالهم النفسي نتيجة شدة الرغبة في إسلامهم، وذلك لما يعرفه صلى الله عليه وسلم من النتيجة المهلكة المؤلمة لمن كفر ولم يؤمن.

قد تَصَدَّر البيان بكلمة الإشفاق ﴿ لَعَلَّكَ ﴾ والتي تفيد النهي عن المبالغة التي تتجاوز مقدور الإنسان، مع الإشفاق، والكشف والتوضيح عن شدة المبالغة في الحرص. وهي تفيد التحفيز والاستنهاض على عدم المبالغة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

في الحرص. وكلمة ﴿ بَٰخِعٌ ﴾ تفيد: المبالغة في الحرص وتكليف النفس بما لا تطيق. والبخع: الإجهاد. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: باخع: أي: مهلك وقاتل[١] بأن لا تُهلك وتُجهِد وتشغل نفسك بالتأسف والهم والغم على من لم يؤمن بالقرآن، وبرسالتك من هؤلاء المكذبين. ومن جميل الدلالات ما ذكره ابن الجوزي عن ابن الأنباري رحمهم الله تعالى أن ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ إنما هي مقدرة تقدير الاستفهام الذي يعني به التقرير، فالمعنى: هل أنت قاتل نفسك؟ لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم[٢] فلا تكترث بهم، ولا تشغل نفسك بمن تولى، مما يفيد أن على الداعية إلى الله تعالى الحرص في دعوته واجتهاده، ولكن لا ينزع إلى درجة إجهاد النفس بالغم والهم لمن أبى وامتنع عن الحق. وقد بين سبحانه وتعالى سبب وعلة ذلك الإجهاد العملي البدني والنفسي ﴿ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ لعلك قاتل نفسك ومجهدها لتركهم الإيمان.

مما يبين أن على الداعية والمرشد والناصح أن يجتهد بقدر وسعه، فلا يتجاوز في الحرص إلى ما يجهده إجهاداً مميتاً، وربما يُشغله ذلك الإجهاد عن متابعة نصح ودعوة وإرشاد الغير للخير. وكذلك نستنبط من فوائد التوجيه الكريم ألا يُجهد الإنسان نفسه فيما يستعصي عليه. بل ربما غيره أفضل منه. ففي إجهاد النفس فيما يمتنع عليها ما يغلق فكر الإنسان عن غيره مما هو أحسن منه وأفضل.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال قدرته على من امتنع عن الإيمان ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ لو أردنا أن نجبرهم على الإيمان لأنزلنا عليهم من السماء معجزة مرهبة، قاهرة لهم، فتجعلهم لا يستطيعون الانصراف عن الإيمان ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ فتخضع لها أعناقهم، وتخر لتلك الآية القاهرة رقابهم، في إذعان للإيمان فلا يستطيعون مقاومته، أي: فيؤمنون قهراً لا اختياراً. بما يفيد أنه لا حاجة لذلك، فالبراهين والحجج واضحة أمام من أراد الحق. كما تفيد أن قدرتنا قاهرة إذا أردنا، فلا يمتنع عنها شيء. وأن كفرهم لا يعني خروجهم عن مشيئتنا وإرادتنا. حتى نجازي كل إنسان بما اكتسب. فسبحان الله تعالى القاهر فوق عباده، وهو العزيز الحكيم.

وأفاد قوله تعالى ﴿ إِن نَّشَأْ ﴾ إثبات المشيئة لله تعالى، وأن كل شيء لا يخرج عن مشيئته تبارك وتعالى. فحكمة الله تعالى وسنته مع عباده اقتضت أنه عَزَّ وجل ألهم كل نفس فجورها وتقواها، ولمن شاء أن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٣٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٧٣-٧٤)

يستقيم، ويختار الحق، أو يكفر به. ثم يجازي العزيز الحكيم العباد على ما يكون منهم، فلمن آمن خير الثواب، ولمن كفر العذاب الأليم. وقد أنزل الآيات والحجج والبراهين الدالة على ذلك.

ومن جلالة القدرة له سبحانه وتعالى أن جعل إنزال الآية الباهرة من عنده من السماء ﴿ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فالْمُنَزِّل هو الله تبارك وتعالى، والمكان الذي تنزل منه الآية التي تُخضعهم من السماء، بما يفيد التهويل والتعظيم والتحذير. ثم يبين قوتها بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ فتخضع لها أعناقهم بسرعة شديدة، فكلمة ﴿ فَظَلَّتْ ﴾ تفيد السرعة والاستمرار في الخضوع والإذعان لها بالإيمان. ووصف هيئة الخضوع بخنوع العنق، الذي هو الرقبة التي تحمل الرأس ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ فتنحني لها رؤوسهم خضوعاً وإذلالاً وخوفاً وهيمنة عليها. بما يفيد قوة الإذلال وإحداث الخنوع والخضوع جبراً، الذي لا مفر منه، والذي يمثل الإجبار قهراً وإذلالاً، مما يدل على قوة ورهبة هذه الآية فيما لو شاء ربنا إنزالها. بما يفيد أن قدرتنا قاهرة إذا أردنا، فلا يمتنع عنها شيء. وأن كفرهم لا يعني خروجهم عن مشيئتنا وإرادتنا. فله سبحانه وتعالى كمال المشيئة والقدرة والسلطان، فإنه عَزَّ وجل القاهر فوق عباده. فلو شاء لعجل العقوبة لكل عاص، ولكنه تبارك وتعالى يمهل العباد لعلهم يرشدون. فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فلنفسه.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى تَمَنُّع وامتناع هؤلاء الكفرة عن الأدلة والحجج التي تأتيهم، بما يدل على معرفتهم للحق، وأن الذي جاءهم هو الحق المبين، ولكنهم عن الحق معرضين ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ فما يتجدد لهم من آيات الله تعالى إلا تجدد معه إعراضهم عن الذكر. فكلما جاءهم ووردهم ما يعظهم من آيات الله وحججه سبحانه وتعالى المتتالية بحداثة وتجدد نزولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ إلا وقابلو حججه بالجحود والصدود عنه صلى الله عليه وسلم.

وجملة ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ تفيد تكرار التذكير بمواعظ القرآن وهديه وإرشاده، فهو تذكير مستمر ومتتابع، وغير منقطع. فكلمة ﴿ يَأْتِيهِم ﴾ فعل مضارع يفيد التتابع والتجدد. وهذا الذكر والتذكير من القرآن الكريم هو من ربهم الذي لا شك ولا ريب فيه ﴿ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ الذي يفيد رحمته بالعباد، بما يرسله إليهم من الذكر ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ الذي هو القرآن الكريم. بل ومن صفات هذا الذكر أنه ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ أي: حديث النزول على النبي صلى الله عليه وسلم، بما يفيد التجديد، وتتابع نزول القرآن الكريم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: جديد إنزاله. كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه، وزادوا فيه، ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله[1] فهو مُحْدَث باعتبار أنه جديد النزول بالتتالي. ومُحْدَث باعتباره أحدث الكتب من الله تعالى. ومع هذا يعرضون ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ إعراض صدود، وعدم تقبل، مما يفيد أن مشكلتهم هي عناد وتكبر، وليس في نوع الآيات.

ثم يخبر الله تعالى بما يستحقون إزاء هذا التكذيب وهذا الصدود والعناد لآياته الباهرة، فقال الله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فقد تحقق فيهم الجحود بتكذيبهم الحق، وإنكاره ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ﴾ بإنكارهم وصدودهم عنه، ومقابل تكذيبهم وكفرهم ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فسيقع بهم ما يستحقون من العذاب بما كذبوا به من الحق، واستهزائهم به بما نبأناهم بهم. فلم يكتفوا بالإعراض عنه، بل استهزؤا به ﴿كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ مما يدل على قوة كفرهم وعنادهم للحق بأدلته وحججه وبراهينه.

وفي هذا البيان ما يفيد التحذير والتنبيه والترهيب، بإثبات وتأكيد تحققه فيهم ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ فإنه آتيهم لا محالة، وبما يفيد تحقق ما أنذرهم الله تعالى به. وجاء الوصف لما سيأتيهم بالأنباء ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ لأن القرآن أنبأ بها، وأخبر عنها في آيات كثيرة، وهو ما توعد به الكافرين سبحانه وتعالى، والتي تمثلها وتبينها الأخبار الواردة في القرآن الكريم، فستكون حقيقة كما أخبر عَزَّ وجل بها في كتابه القرآن العظيم. فسيحل بهم ما وعد الله تعالى به من العذاب السعير.

ومن دقائق الوصف لأحوال المشركين مع ما جاءهم من الحق أنها ثلاثة أحوال: النوع الأول: هو الإعراض ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ فيتجدد إعراضهم عن الذكر، مع كل ما يردهم من المواعظ المتجددة والمتتالية بحسب حداثة نزولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى الإعراض هو رد الشيء بعد سماعه ومعرفته. والنوع الثاني: التكذيب ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ﴾ وعلاقة التكذيب بالإعراض، أنهم أعرضوا عنه مكذبين له. فجمعوا إلى رَدِّهِ أن كذبوا به، فوصفوه بالكذب والتزوير، لأن هناك من يعرض دون أن يكذب بما يعرض عنه. والنوع الثالث: أنهم أضافوا لهاتين الحالتين المحاربة والاستعداء

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨١/٣)

بأسلوب الاستهزاء ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ بما يفيد أن هذه الحالات تعطي دلالة المكابرة مع الحسد، لأن المكابر الحاسد لا يريد ظهور وبروز وعُلو من يحسده، فلا يكفيه الإعراض، بل يسند إعراضه بالتكذيب والتشويه الذي يُظهره لغيره من الناس، ليصدهم عن الحق، ثم يتمادى إلى درجة الاستهزاء التي تحمل دلالة التحقير والتصغير، بما ينفر غيره منه. وهذا من دقائق تحليل حالتهم، وبيان علة كفرهم.

ثم يلفت الله تعالى الانتباه إلى دلائل قدرته التي تستوجب طاعته، بما يُقيم عليهم وعلى كل جاحد الحجج والبراهين ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ ألم يشاهدوا بأعينهم وبصائرهم دلائل قدرة الله تعالى في الأرض ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ كثرة ما أنبتنا فيها من جميع أصناف النباتات النافعة، التي سَمَّاها ووصفها سبحانه وتعالى بأكمل الأوصاف: ﴿زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ بما يفيد المدح والثناء على ما أنبت من الحُسن والفضل وشريف الإنبات، وبما يفيد أن في ذلك دلالة واضحة على عظمة قدرة الله تعالى، فلا يستطيع إنبات الأرض إلا رب العالمين، الذي ينزل من السماء ماء، فيحي الأرض بعد موتها.

وورد البيان بصيغة الاستفهام الإنكاري، الذي يفيد استنكار عقولهم وأبصارهم وبصائرهم وفهمهم لهذه الآيات العظيمة، ألم يكن فيها ما يستثير عقولهم إلى أن الله تعالى بقدرته وحكمته أنبت لهم ما يحتاجونه من النبات، بل جعل فيه التنوع ﴿ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ فأنبتنا في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾ أي: من كل صنف ونوع. فأنبت ربكم لكم من كل نوع ما يُحمد، لشدة نفعه ونفاسته، وكل واحدة في أجمل وأحسن ما يكون من الهيئة، مع تعدد نوع الإنبات، وفائدته، وتنوعه الذي أكرمهم به. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وصف الزوج، وهو الصنف من النبات بالْكَرَم، والْكَرِيم صفة لكل ما يُرضي ويُحمَد، يقال: وجه كريم، إذا رُضي في حُسنه وجماله، وكتاب كريم، أي مُرضي في معانيه وفوائده[١] وشجرة كريمة، أي: كثيرة الثمر. والكريم هو الحسن الشريف. فجمع الوصف بالكريم جميع أوجه المحاسن والنفاسة. مما يدل ويفيد أن هؤلاء المكذبين لو نظروا وتأملوا في عملية الإنبات، وفوائده وجماله، وعلاقته بحاجتهم لأيقنوا أن الله تعالى وحده الذي يستحق العبادة. وفي هذا بيان لأهمية التدبر والتفكر في المخلوقات، فإنها تغرس الإيمان وتقويه.

ومن بلاغة السياق أن ورد السؤال بجملة ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ فَوُصِفَت رؤيتهم بالعدم التي لم ينتفع منها صاحبها. وهو سؤال استنكار على من لا يتدبر ويستدل بالإنبات على عظمة الخالق، وعظمة دقة تدبيره، وعظيم سلطانه، ورحمته بعباده، وكذلك هو سؤال تعجب ممن لم يتدبر ويتعظ ويستدل بذلك على وحدانية

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٢٩٨)

الله تعالى. وهو كذلك سؤال يقرر به عَزَّ وجل أن فيما أنبت آيات عظيمة لمن تدبر وأراد الحق. وجملة ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا ﴾ تدل على الكثرة، والتنوع والتعدد، بما يؤكد إثبات الكثرة التي لم يستفد منها المشركون. والتي هي محل لفت الانتباه من حيث وجوده وكثرته وتنوعه، ومواقعه من الأرض، وأن ذلك محطة ومظنة السؤال الذي هو ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ بأن في هذه الكثرة من الإنبات، ونفاسته ما يفيد الامتنان بالنعم التي تستوجب الشكر، بكمال الطاعة لله تعالى وحده لا شريك له، واتباع رسوله صلى اله عليه وسلم.

وقد أفادت دلالة ﴿أَنۢبَتۡنَا ﴾ الإخراج والإظهار، بأن عملية إخراج الزرع من الأرض هي من الله تعالى، وليست منكم، فإن الزارع يحرث، وينثر البذور، ولكن ليس هو الذي يخلق ويُنبت الزرع، فَيُخرجُه من الأرض. والإنبات يشمل عموم ما يخرج من الأرض من الزروع، لتستوعب الدلالة صغيرها من الحشائش، وعظيمها من الأشجار الباسقة، والممتد منها على الأرض، وغيرها من الأنواع، فضلاً عن تنوع عطائها من الخضروات والفواكه للإنسان، والحشائش للبهائم والحشرات والدواب بجميع أنواعها وأحجامها.

ثم يؤكد عَزَّ وجل أن في هذا الإنبات آية لمن فكر وتدبر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فإن فيما أنبت ربكم من النباتات المتنوعة الكريمة في عطائها وهيئتها وظلالها؛ لدلالة وحجة بينة واضحة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته. ومع كل هذه الآيات الواضحات الباهرات فإن أكثر الناس كافرون ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فليست الأكثرية هي التي قد تحقق فيها الإيمان من الخلق، فإن القلة هم أهل الإيمان والتصديق على الرغم من جميع هذه الحجج والآيات والبراهين التي تُوجب الإيمان، فإن أكثر الخلق مكذبين بآيات الله تعالى وبما أنزله على رُسُلِهِ من الكتب. مما يدل على قلة عدد المؤمنين بالنسبة لعدد الكافرين، وهذا ما هو مشاهد في جميع أطوار الدنيا، مما يدل على إعجاز بيان القرآن بأنباء الغيب والواقع.

ثم يخبر الله جَلَّ ثناؤه بكمال صفاته، وعظيم قدرته عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فإن ربك أيها الرسول ﴿لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فهو المتصف بكمال العزة، والمتصف بكمال الرحمة، فالعزيز هو المتصف بكمال القدرة التي يقهر بها من عصاه، والرحيم هو الذي يملك كمال الرحمة، فيرحم بها من أطاعه، واتبع المرسلين. فمن كانت هذه صفاته، فهو الذي يجب أن يطاع بالإيمان والعمل بالصالحات التي جاء بها المرسلون، وخاتمتهم نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى توجيه الكافرين بأسلوب الاتعاظ بمن سبق، ويلاحظ أن السياق لم يبدأ بترتيب القصص ترتيباً زمنياً، بل بدأ بما هو أقرب معرفة للمُخَاطَبين وهم اليهود، وكذلك بما هو أشبه بالمشركين في التعالي والتمادي في الكفر والطغيان والظلم. فبدأ تبارك وتعالى بقصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، والتي امتلأت بالمواقف المتنوعة، والتي تكشف وتبين وتوضح لهم جزاء المتعالين، وما اتصف به عَزَّ وجل من القوة والجبروت، وقدرته سبحانه وتعالى على إهلاك الظالمين، وما في ذلك من العظة والعبر التي تبين وتوضح وتؤكد بدقائق بيانها وتفاصيل أخبارها بأن هذا القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من بشر، بل إنه من الله تعالى العزيز الحكيم، وأن الْمُرسَل به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم من رب العالمين ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ واذكر لهم أيها الرسول حين نادى ربك رسوله موسى ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ فاذكر لهم حين مناداة الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام، حين كان بالوادي المقدس، فناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه واصطفاه رسولاً إلى فرعون وملئه. وقد بسطها الله تعالى في سورة: الأعراف، وفي سورة طه، وفي سورة القصص.

فأمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ اذهب إلى القوم الذين بلغوا درجة الظلم؛ ببغيهم، حتى ادعى كبيرهم فرعون أنه ربهم الأعلى، فاستجابوا له. فظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم، بل ساموهم سوء العذاب، فذبحوا أبناءهم، واستحيوا نساءهم. وقد سَمَّاهُم وعَيَّنَهم سبحانه وتعالى ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ أي: قل لهم ألا تتقون ربك، فتخافونه، وتحذرون عذابه. ووردت الرسالة إليهم بصيغة السؤال الاستفهامي ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ الذي يفيد استنكار ما هم عليه من الكفر،

وعدم اتباع ما يجب أن يكونوا عليه من الإيمان، وأفاد السؤال الاستفهامي التعجب من حال كفرهم. أفلا يصرفون عن أنفسهم غضب الله تعالى وعقابه بلزوم توحيده وعبادته وطاعته عَزَّ وجل. وقد تم إجمال الرسالة في التقوى ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ ما يدل على قيمة التقوى ومنزلتها وأثرها في الطاعة. فالتقوى مخافة عذاب الله تعالى، والرغبة في ثوابه عَزَّ وجل. فإن مَن حمل التقوى في قلبه، أصبح فؤاده وعاء لمنهج الله تعالى، وأصبحت إرادته خاضعة لهدى الله عَزَّ في علاه.

ثم يخبر الله تعالى بجواب موسى عليه السلام على ما أمره الله تعالى به ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ فقد أفصح موسى عليه السلام عما في قلبه من عنادهم وتكبرهم، بما يدل على علمه بهم. وفي جملة ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾ ما يفيد توقعه لأجابتهم، مع امتثاله وعدم امتناعه عما أمره ربه سبحانه وتعالى به، ولكن هو بيان لحال عدم استجابتهم وتكذيبهم له، فإن كذبوا فما هو الحل؟ وذلك بناء على معرفته بهم؛ وبظلمهم واستكبارهم، وحاجته لمواجهة ما هم عليه عند تكذيبهم له، وما قد يكون منهم ما يتوقعه من السوء والتكذيب والبأس ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ويُستفاد من ذلك أن على الْمُكَلَّف بأمر أن يوضح لمن كلفه بما يتوقعه بناء على معرفته الحقيقية للأمر، فأورد موسى عليه السلام ذلك بناء على معرفته بهم، ومعايشته لهؤلاء الظالمين. مما يدل على حرصه على أن يستجيبوا له، وذلك طاعة واستجابة لتكليف الله تعالى له بالرسالة.

ثم عطف موسى على علة خوفه من التكذيب ما يترتب عليه من ضيق الصدر، وما يترتب على ضيق الصدر من أن ينحبس لسانه عن الرد عليهم ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ فيضيق صدري نتيجة تكذيبهم والصد عني وعَمَّا كلفتني به يا رب، وذلك لما يعتريه من ألم التكذيب وكمده، وهو معنى ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ بما يبين أثر ضيق الصدر على الجوارح والتعامل والتصرف. فيترتب على ذلك انحباس اللسان ﴿ وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ أي: فينحبس لساني عن مجاراتهم في الكلام، والإفصاح، ومحاجتهم بما أريد من الرد وإقامة الحجة عليهم. مما يبين أثر الصدر حين ضيقه وحين انشراحه على طلاقة اللسان وانقباضه. وقد كانت في موسى عليه السلام عقدة في لسانه عند التحدث، فيحصل مني التقصير، وبالتالي يخاف بأن لا يتحقق المراد من الرسالة وأهدافها.

مما يدل على فهم موسى عليه السلام لقومه، وفهمه لنفسه، وفهمه للحال التي تكون من قومه، والحال المتوقع أن تكون منه. مما يفيد أهمية أن يدرك الإنسان حال نفسه، ويكون صادقاً في فهم حالها، وحال الطبيعة البشرية عندما يكون الإنسان في موقف من المواقف، وأن عليه أن يتأهب لذلك ويستعد، كالداعية عندما يكون أمام قوم ظالمين. وأن الْمُكَلَّف بأمر يلزمه أن يكون صادقاً وناصحاً مع من كلفه. ولذلك طلب موسى

عليه السلام بعد أن ذكر الحيثيات والأحداث والأحوال المتوقعة طلب من الله تعالى أن يعينه بأخيه هارون عليه السلام ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ فكلف يا ربي معي هارون عليه السلام. قال القرطبي رحمه الله تعالى في معنى ذلك، أي: أرسل إليه جبريل بالوحي، واجعله رسولاً معي ليؤازرني ويظاهرني ويعاونني. ولم يذكر هنا ليعينني، لأن المعنى كان معلوماً. وقد صرح به في سورة طه[1] وفي هذا فائدة إدارية وعملية في جميع شؤون التكليف، بأن يستعين الْمُكَلَّف بالذي يُكَمِّل معه ما ينقصه ويحتاج إليه، وأن لا يستنكف من ذلك، وأن يأخذ الأفضل، خاصة إذا كان قريباً، فهارون هو أخو موسى عليهما السلام، وهو أكبر من موسى سناً. فبعثه الله تعالى مع أخيه موسى نبياً ورسولاً، وكان في منزلة الوزير لأخيه موسى الذي هو أصغر منه سناً، مما يفيد أهمية المعاونة، وأهمية التواضع، وقبول إدارة ورئاسة الأصغر على الأكبر. وبفضل الله تعالى تم إيراد فوائد ذلك في السور التي وردت فيها قصة موسى عليه السلام مع فرعون.

ثم تدرج موسى إلى ما يبرر به طلبه بأن يعضده ربه سبحانه وتعالى بأخيه هارون عليهما السلام ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ والذنب هو أن موسى عليه السلام قتل رجلاً قبطي، وسَمَّاه ذنباً، اعترافاً منه بأنه قد أخطأ، واستغفر ربه من ذلك الذنب، وتاب منه، فتاب الله تعالى عليه كما جاء في سورة القصص ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ فيطلب موسى العون من ربه عَزَّ وجل بأخيه هارون عليهما السلام بسبب هذا الذنب الذي يعترف به موسى عليه السلام ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ فيخاف أن يأخذوه قصاصاً بسبب ذلك الذنب فيقتلوه. مما يفيد أن الإنسان قد يذنب ذنباً كبيراً، فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، فإنه هو التواب الرحيم.

فيجيبه ويرد عليه سبحانه وتعالى رداً جازماً وحاسماً بما يزيل خوفه، ويغرس فيه الطمأنينة، فقال عَزَّ وجل ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ فقال الله تعالى لموسى عليه السلام بما ينفي جميع ما كان يتخوف منه ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ حرف إبطال ونفي من أن تتحقق تلك الظنون، بما يفيد استدفاع موسى عليه السلام بكل شجاعة إلى أداء ما أُمِر به، وبما يفيد غرس الثقة بمعية الله تعالى وعنايته به. فَيُبطِلُ اللهُ تعالى به تخوفه من جميع أنواع المخاوف، سواء من تكذيبهم، أو من أن يضيق صدره بما يقولون، أو من عدم انطلاق لسانه، أو من أن يقتلوه أخذاً بثأرهم من قتله القبطي. فحرف ﴿ كَلَّا ﴾ من الله تعالى يعيد موسى عليه السلام

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٣/١٣)

إلى حالته الطبيعية الخالية من جميع المخاوف، وينفي ويُبطل به جميع المعوقات ومنها المخاوف، بما يغرس فيه الطمأنينة. وهو حرف زجر، لكنه في موقع سياقه ودلالته من الله تعالى لرسوله موسى عليه الصلاة والسلام هو إبطال ونفي من أن يحصل شيء مما تخاف منه أو احتمال تتوقعه، بما يتحقق بهذا الجواب من الله تعالى كمال التطمين والطمأنينة لنفس موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم يخاطب الله تعالى موسى وأخيه هارون معاً ﴿ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ بما يفيد أنه قد تم الاستجابة لطلبك، وقد تم التكليف حالاً مِنَّا لهارون أخيك ﴿ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ فاذهبا بحجتنا، وهي الآيات المعجزة؛ كعصا موسى، ويده التي تخرج بيضاء من غير سوء، وغيرها من الآيات. فاذهبا بها لإقامة الحجة عليهم، ثم يعزز تبارك وتعالى ذلك بمعيته لهما ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾ فإن ربكم معكم، يسمع ما تقولون، وما يجيبون به من الجواب. بما يفيد أنه بقدرته وسلطانه وعلمه وسمعه وبصره سبحانه وتعالى يحميكم منهم. وقد ذكرهما سبحانه وتعالى بصيغة الجمع ﴿ إِنَّا مَعَكُم ﴾ فأجراهما مجرى الجماعة، وتكون كذلك دلالة ﴿ إِنَّا مَعَكُم ﴾ بمعنى: موسى وهارون عليهما السلام وقوم فرعون. فتضمنت للوجهين باعتبار السياق الذي دل على براعة القرآن في إعجاز تراكيب كلماته التي تعطي دلالة الوجهين المتوافقين من غير تناقض. فهو مع الجميع علماً ومشاهدة وقدرة، وفي نفس الوقت هو مع موسى وهارون معية علم ومشاهدة وتوفيق وحماية ومنعة لهما من أن يصيبهما شيء مما يكرهون. فسبحان الله العظيم.

وورد استماع الله تعالى لهما بصيغة التفخيم ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾ وهو صيغة جمع الاستماع ﴿ مُّسۡتَمِعُونَ ﴾ وسبقها كذلك صيغة الجمع للمتكلم ﴿ إِنَّا ﴾ والذي يفيد كذلك التعظيم والتفخيم والإجلال، بما يفيد أن ربكم عظيم من كل وجه: في تدبيره وقدرته وقوته، وفي كل شأن. فسبحان الله تعالى، العظيم الجليل القادر القدير. فمن كان القوي العزيز معه فلن يضره كيد الكائدين، ومكر الماكرين، مهما بلغت قوتهم، وقويت إرادتهم، فقوة الله تعالى أعظم وأجل وأقدر. اللهم إنا نستعين بك في كل شأن وأمر.

وبعد أن زود الله تعالى رسوله موسى بالآيات المعجزات يوجه سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بما يقولانه لفرعون ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فاذهبا إلى فرعون، قائلين له إنا مُرسَلُون لك من رب العالمين. بما يفيد: أننا لسنا قادمين إليك من أنفسنا، بل مُكَلَّفين من رب العالمين. وفي قولهما ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ إثبات بأن الله تعالى هو رب العالمين، ولست أنت يا فرعون بزعمك الربوبية لنفسك، كما قال تعالى عن ذلك في سورة النازعات ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ ﴾

وفي هذا قوة الشجاعة أمام شخص يدعي الربوبية والألوهية من دون الله تعالى. مما يبين أهمية الشجاعة في المواجهة التي تحفظ قوة القول والحقيقة والأسلوب مع اللين، وبما تحفظ به الحقيقة التي يُظهرها الرسول ويعلوا بها.

وأفادت الفاء في قوله تعالى ﴿ فَأْتِيَا ﴾ ترتيب التتابع والالتصاق بما قبلها من الكلام. ووردت كلمة الرسول بصيغة المفرد ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: رسول بمعنى رسالة. والتقدير على هذا: إنا ذو رسالة رب العالمين. وقال أيضاً: ويجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع[1]

ففي حال كون ﴿رَسُولُ ﴾ تعني الاثنين؛ فإن في إفرادها تدليل له على أن رسالتنا واحدة، فشأننا هو شأن الرسول الواحد، بما يفيد التوافق في الرسالة، ونفي الاختلاف. وإفادة المبالغة في اتحاد ما جئناك به وقومك. وبالتالي شمل البيان دلالتين متوافقتين غير متعارضتين، وبسياق واحد.

وبعد أن تبيانكم له أنكما مرسلان من الله رب العالمين، قُولا له ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: أرسل وابعث معنا بني إسرائيل؛ لنخرج بهم إلى غير هذا المكان. بما يفيد أن أطلق سراحهم مما هم فيه من الإذلال والظلم والبغي، وفي هذا دلالة على عناية الله تعالى ببني إسرائيل؛ وهم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وهنا يرد فرعون على موسى بأسلوب الامتنان المعارض لما قاله موسى له عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ألم نتولاك بتربيتنا ورعايتنا لك في منازلنا صغيراً حين طفولتك ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ مولوداً صغيراً. وهذا عندما وضعته أمه في التابوت، بأمر الله تعالى، ثم قذفته في البحر، فألقاه اليم في الساحل، فأخذه فرعون واعتنى به ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ومكثت في رعايتنا سنين عديدة من عمرك. فعشت بيننا حقبة من عمرك دون أن نقتلك مع جملة من قتلنا من الصغار، حديثي الولادة. وفي قوله ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ ما يفيد شمولية تدبير شؤون موسى عليه السلام في صغره: من المسكن والمأكل والمشرب والتوجيه، وجميع ما يحتاجه المتربي. فأغنت عن جميع تفاصيل الرعاية. ووردت إجابة فرعون بصيغة السؤال التقريري بما كان من حال موسى عليه السلام في صغره، مع الاستنكار على ما جاء به من الرسالة، فمتى كان هذا الذي تدعيه أنك وأخيك رسولا من رب العالمين؟ وبما يفيد كيف

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/٦٤)

تتجرأ بهذا وأنت ذلك الذي نعرفه؟ وقد مننا عليك بما تعرف. وبما يفيد أن واجبك اليوم هو الطاعة لمن تفضل عليك بالرعاية، لا أن تنازعه شأنه.

ثم يُذَكِّرُ فرعون موسى عليه الصلاة والسلام بما كان من قتله للقبطي ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ومع تربيتنا لك في صغرك: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ وهي قتلك للقبطي، وفي إفراده الفَعْلَة إثبات بأنها مرة واحدة قد حصلت من موسى عليه الصلاة والسلام. مؤكداً لها بتكرار الفعل مرتين ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ ففعلت فعلتك التي تعرفها، دون أن يذكرها فرعون بتسميتها من القتل، فجعلها مبهمة امتناناً عليه، وتهويلاً وتفظيعاً لها. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفي العدول عن ذكر فعلة معينة إلى ذكرها مبهمة، مضافة إلى ضميره، ثم وصفها بما لا يزيد على معنى الموصوف تهويل، مراد به التفظيع، وأنها مشتهرة معلومة، مع تحقيق إلصاق تبعتها به[١] وهذا القتل لم يكن مقصوداً من موسى عليه الصلاة والسلام كما تم بيانه في سورة: الأعراف، وفي سورة طه، وفي سورة القصص.

ثم يبين فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام أنه بكل هذا، فإنه من الجاحدين لذلك الإنعام ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الجاحدين لما أنعمنا به عليك. فهو حكم من فرعون على موسى بأنه من فئة الجاحدين، فهو واحد منهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فتأويل الكلام: وقتلت الذي قتلت منا وأنت من الكافرين بنعمتنا عليك، وإحساننا إليك في قتلك إياه[٢] فكيف تدعي مع علمنا بسيرتك وأحوالك بأنك رسول من الله؟ وبما يفيد أنك بهذه الدعوة التي جئت بها وأخيك؛ فإنك تجحد نعمتي عليك حال طفولتك وصباك وشبابك، فتخالف بذلك ما نحن عليه، وتطلب أن أرسل معكما بني إسرائيل. بما يفيد هل هذا هو جزاء تربيتنا وإحساننا إليك؟ مما يبين أن فرعون قصر نظره ت على ما كان منه لموسى عليه السلام، وكأن مَن كان ذلك حاله يُستبَعد عنه الاصطفاء من الله تعالى. فتجاوز فرعون بذلك ما جاءه من الحق مع موسى وهارون عليهما السلام. فتمحور نظره في إنعامه على موسى عليه الصلاة والسلام. وهذا يفيد أن فقر وضعف الإنسان في صغره، لا يمنع أن يعلو شأنه في كبره. وأن من أخطأ خطأ واحداً فإنه لا يعني عدم استقامة أمره وشأنه. فالمخطِئ في شبابه أو صغره، قد يستقيم شأنه في كبره، فيكون أحسن وأفضل من غيره. خاصة وأن القتل لم يكن مقصودا كما في سورة القصص ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فطلب الذي من شيعته العون والمناصرة على الذي من أعدائه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ فضربه موسى وكزاً بمجامع كفه ﴿فَقَضَىٰ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٤٧/٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٧/١٧)

﴿عَلَيۡهِ﴾ فأجهز عليه، بأن قتله، فقضى وفرغ من شأنه بقتله. وكل شيء فرغت منه فقد قضيته، وقضيت منه. وغالباً أن وكزة قبضة اليد لا تقتل، ولكن حصل ما لم يرده موسى عليه السلام، كما يدل ذلك على أن موسى عليه السلام كان قوي البدن جداً، فقد حباه الله تعالى صحة وعافية وقوة جسمية. وأنه كان رجلاً يحب نصرة الدين وأهله، ونصرة المظلوم، لأن بني إسرائيل في حكم فرعون مستعبدون مقهورون، فكانوا خدماً لقوم فرعون، فيكون الظلم واقع عليهم من غيرهم المتعالين. وهنا أنَّب موسى نفسه على ما حصل من قتل الرجل الذي من عدوه ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ قال هذا الفعل من قتلي للقبطي هو من وسوسة وتزيين الشيطان ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ إن الشيطان عدو للإنسان، إذ يزيين له سوء عمله، بأن اشدد عليه قضبه فوكز عدوه وكزة قوية فقضت عليه، مما يدل على أنه لم يكن يريد أن يصل الأمر إلى القتل، بل النصرة بالإبعاد.

وهنا يعترف موسى بما فعل، مع تفسير علة وسبب قتله في كلمة وجيزة ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فبدأ موسى بالاعتراف أولاً ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا﴾ أي فعلتها حين فعلتها ذلك الوقت ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي فعلتها حين أن فعلتها وأنا حينها كنت من الضالين عن طريق الصواب، والجاهلين به. فكان فعلي لها قبل أن أكون رسولاً من الله تعالى. فأفادت وكشفت صيغة إجابته عن صدقه وشجاعته في مواجهة فرعون، فلم يعمد إلى النفي، أو إلى مبررات أخرى، بل بادره بالاعتراف الممتلئ تحدياً وتصويباً لمفهومه، بما يدل على ذهاب ما كان خائفاً منه بقدرة الله تعالى ومعونته، وبما يكشف عن قوة الإيمان التي حظيت بمعية الله تعالى ونصره، وتمكينه وتأييده. فإنها جملة قوله تعالى ﴿كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ أفادت إنه الوعد الحق من الله تعالى، والرعاية العظيمة من القوي العزيز التي قذفت في قلب موسى عليه السلام هذه الشجاعة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فجواب موسى فيه اعتراف بظاهر التقرير، وإبطال لما يستتبعه من جعله حجة لتكذيبه برسالته عن الله تعالى. وقال كذلك: إن قول فرعون ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ التي قصد بها إفحام موسى وتهديده، فجعل موسى الاعتراف بالفعلة جزاء لذلك التهديد على طريقة القول الموجب، أي: لا أتهيب ما أردت[1] مما يفيد أن الله تعالى ألهمه ما يعينه على أداء ما كلفه به عَزَّ في علاه.

فإن التوكل على الله تعالى قوة لا مثيل لها. اللهم اجعلنا ممن توكل عليك حق التوكل فكفيته. كما أفاد جوابه: أنني اليوم لست من الضالين، بل على خلاف ما تعتقد وتظن، فإنني رسول من الله رب العالمين. فنفى

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٤٩/٨)

عن نفسه ما يعتقد فرعون، ليصحح مفهومه عنه. وبما يفيد أن لله تعالى حكمة، وأن الإنسان قد يخطئ، فيصلح شأنه حتى يكون إماماً وقدوة في الخير، إذ أصبح موسى رسولاً كليماً قد كلمه الله تعالى تكليماً، وبما يفيد أن أخذ الناس بما هم عليه، دون النظر إلى المتغيرات فيه خطأ وإجحاف في الحكم. فالحكم على الناس بما هم عليه، وليس بما كان منهم، فقد تتغير مسيرة الإنسان، فكم ممن كان في الجاهلية طاغية ثم أصبح بعد إسلامه صحابياً جليلاً.

ثم يبين موسى عليه السلام علة وسبب فراره منهم، وموجب عودته إليهم، وبيان قوة ما يحمله معه من رسالة الله تعالى ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فلما كان قتلي للرجل على وجه الخطأ الناتج عن جهلي، وخوفي منكم ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ ﴾ فهربت منكم، وتباعدت عن موطن إقامتي ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ لخوفي منكم سبب فراري عنكم. بما يفيد أن مجيئي إليكم اليوم هو من غير خوف منكم، فهو خالي من الخوف، فإنني لا أخافكم اليوم، ولا من قوتكم، ولا من قدرتكم، وبما يفيد أن القوة التي تحفظني اليوم وتنصرني هي أقوى وأظهر من قوتكم. وفي هذا تنبيه لفرعون بأن موسى عليه السلام يحمل الصدق معه، والتأييد من الله تعالى.

ثم يبين لهم ما يحمله من الرسالة الموجبة لعدم الخوف ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فأولاً: ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴾ أي: النبوة. وثانياً: ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وجعلني حاملاً لرسالته عَزَّ وجل. بما يفيد إن قبلتها فقد نجوت وسلمت، وإن ردتها هَلَكت.

وبعد الجواب الملزم لفرعون بالطاعة والانقياد لرسالة الله تعالى، ينتقل به موسى عليه السلام إلى ما كان يمتن به فرعون عليه من نعمة التربية والرعاية، ويوضح له بأن تلك الرعاية والتربية ليست على سبيل أنك رجل محسن ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فتلك النعمة التي تمتن بها عليَّ من التربية والرعاية، وتظن أنك محسن من المحسنين، فإن شأنك مع بني إسرائيل لا يدل على ذلك، فإنه منافٍ للإحسان ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فقد جعلتهم لك عبيد، إذ وصل بفرعون الأمر مع بني إسرائيل أنه يُقَتِّل أبناءهم، ويستبيح نساءهم، بإبقائهم، لاستخدامهم عاملات في أصعب وأنكل الأعمال والمهن، بما يفيد أنك ظالم وجبار على غيرك، وبالتالي فإن ما كان منك معي لم يكن إلا من الله تعالى، فسخرك أن تكون معي بما ذكرت، وإلا فإنك ظالم متجبر. فهذه حقيقتك التي أنت عليها، فأين المنة وأنت تستعبد قومي. وفي هذا غاية الشجاعة من موسى عليه السلام، وعظيم معية الله تعالى له ولأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام، فقد جعلت وشكلت

قوة التوكل من شخصية موسى عليه السلام قوة أثناء حديثه لفرعون، فكان حديثه حديث القوي المنتصر. مما يبين أن من كان الله تعالى معه فإنه الْمُسَدد والأقوى من كل وجه.

وابتدأ نص الجواب بالإشارة إلى التربية ﴿وَتِلْكَ﴾ التربية وما لبثته فيكم من العمر ﴿نِعۡمَةٞ﴾ تمنن بها عليَّ ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ فكيف تمنها علي وأنت الذي أسأت لقومي بالاستعباد ﴿أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فتصرفهم في المشاق من الأعمال باستعبادهم وإذلالهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً، تصرفهم في أعمالك، ومشاق رعيتك. أفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم. أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلته بهم(١) وفي ذلك كشف لحقيقته، ومواجهةٌ شجاعةٌ في بيان الحق، بما يُكَذِّبُ به دعوة الامتنان بالإحسان إليه. وبيان لسيرته الظالمة، التي تكشف له ظلمه لبني إسرائيل، وتعديه على حقوقهم، بما ينفي عنه الإحسان، وأنه ليس من فئة المحسنين. وبالتالي فإن هذه الشجاعة هي آية من آيات نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام. بل حتى فرعون على قوته وجبروته لم يستطع أن يصنع شيئاً لموسى وهارون عليهما السلام أثناء حديثهما معه، وهذه آية من آيات الله تعالى حين جَبُنَ وربما رَعُب، وكذلك يدل على أنه أيقن أنهما رسول من الله تعالى إليه وإلى قومه، ولكن استعلاؤه وجبروته جعله يؤثر الدنيا على الآخرة. وكل إنسان لديه جبروت وحب للاستعلاء، فإنه يضاد ويكافح الحق، ويناضل عن باطله، حتى ولو خسر الآخرة التي هي أفضل وأبقى.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾

وبعد محاجة موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون، ينتقل السياق إلى ردود فعل فرعون التي بدأها بالسؤال عن رب العالمين. لأن الله تعالى أمر موسى وهارون أن يقولا له بذلك ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهنا بدأ فرعون بالاستفسار الذي يفيد إظهار تجاهله من أن يكون هناك رب للعالمين، وليتحول

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٤٥)

عن قوة محاجة موسى التي أفحمه بها في شأن بني إسرائيل من الاستعباد والاضطهاد، وقتل ذراريهم، والادِّعاء بالإحسان إليه عندما كان وليدا ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ سؤال استنكار من أن يكون هناك رب للعالمين. فهو يستنكر وجود الله تعالى تبطراً وظلماً واستعلاء، لأنه يَدَّعِي الألوهية. مما يدل على عظيم طغيانه.

فأجابه موسى عليه السلام ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ إن رب العالمين هو رب السماوات ورب الأرض وما بينهما من المخلوقات، فبدأ بربوبيته للسماء عَزَّ وجل ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي: رب العالم العلوي ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: رب العالم السفلي ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أي: وما بين السماء والأرض من النجوم والكواكب والشمس والقمر والسحاب والهواء.

وبهذا الجواب ينفي ادعاء فرعون الربوبية، ويبطلها، ويستثير عقول من حوله ممن كان في مجلسه، ثم ربط صحة علم فرعون وقومه وسلامة عقولهم وأفكارهم بحقيقة الإيمان والإيقان بما قرره لهم ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي: إن كانت لكم أبصار وبصائر ترى الحق وتتأمل وتتفكر، وقلوب موقنة بما تشاهد وترى من هذه المخلوقات والحقائق العظيمة، فتؤمن بأن الخالق لها هو رب العالمين فهذا دليل على يقينكم. وبما يفيد وإن كانت أفهامكم قاصرة عن ذلك، وقلوبكم لم توقن به فأنتم حينئذ لا تعلمون ولا تفهمون، ولا تستفيدون مما تشاهدون بأبصاركم وبصائركم. فأورد الكلام بصيغة الاستفهام الذي يستثير الذهن للتفكر.

وتم اختيار كلمة اليقين ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ لأنها تتجاوز المعرفة إلى التقرير والاستسلام لذلك. لأن اليقين يتجاوز المعرفة إلى الإيمان الواثق الذي لا يخالطه شك ولا ريب. حيث أن فرعون لا يستطيع أن يُحدث في الكون ما يغيره، وليس له مشاركة في الكون بشيء حتى يدعي الربوبية من دون الله تعالى. والتي تبين لمن حوله افتراءه عليهم أمام عظمة وعظيم قدرة الله تعالى، وعجز فرعون من أن يكون له شيء من ذلك، وأنه كاذب فيما يدعي به عليكم، وأنه عبد مثلكم لله تعالى. وبالتالي يستثير موسى عليه السلام فهم وإدراك من حوله بهذه الحقائق، ويوقظ جهلهم عن فهم الكون ورحابته وخالقه التي يعجز فرعون من أن يغير فيه شيء من سنن الله تعالى.

وتبين وتوضح هذه المواجهة شجاعة موسى عليه السلام، التي لا يمكن إلا أن تكون قوة ربانية لموسى أمام هذا الطاغية، وآية عظيمة وموعظة لغيرهم، وللمشركين من أن الله تعالى مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوته وقدرته وسلطانه، كما كان مع موسى عليه السلام في مواجهة فرعون. فقد نفى ما يدعيه فرعون أمام أعوانه، وفي مجلسه، واستصغر فكره وحَقَّره أمام جلسائه بالحق والبرهان الواضح مما يشاهدون ويعاينون.

وهنا يتجه فرعون إلى أسلوب الاستنكار لأدلة موسى عليه السلام بأسلوب التعجب منها، وكأن كلام موسى عليه السلام بعيد كل البعد عن الحقيقة ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ فيخاطب فرعون من عنده ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ من جلسائه وأعوانه ووزرائه ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ سؤال استنكار وتعجب، وتهكم واستهزاء واستنكار، واستبعاد لصحة كلام موسى عليه السلام، بما يفيد كيف يكون لكم رب غيري كما تعرفون؟ فبهذا يريد أن يغريهم بسفه قول موسى، حتى يُخرجهم من التأمل والتفكر في حجته الباهرة.

فرد موسى عليه السلام عليهم بالتأكيد اليقيني من أن الله تعالى هو رب العالمين، وذلك بزيادة التأكيد أنه كذلك هو ربكم ورب من كان قبلكم من الآباء وغيرهم ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فنقلهم موسى عليه الصلاة والسلام إلى دليل آخر، متعلق بالفناء لمن سبق، ليدلهم بذلك على فنائهم، وليدلهم على أن الذي خلقكم سيفنيكم، كما أفنى من كانوا قبلكم في هذه الدنيا، فإن الله تعالى هو ربكم، كما هو رب من قبلكم، ورب من يأتي بعدكم. بما يفيد فناء فرعون، فكيف يكون رباً وهو مثلكم سيموت ويفنى كما فني الآباء ومن سبقهم. كما أن فرعون لم يكن موجوداً فيمن كان قبلكم حتى يكون هو الرب، فكيف يكون ربكم دون من سبقكم. فقرر لهم الحق بالحقيقة التي يعرفونها ولا ينكرونها من الفناء. ونفي الربوبية عن كل مخلوق.

ثم ينتقل فرعون بمن عنده إلى شخص وذات موسى عليه السلام، فيتهمه بالجنون ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ فيتطاول فرعون في طغيانه وعناده إلى اتهام موسى بالجنون، ومتهكماً من كونه رسول ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ﴾ فيسميه رسول على سبيل التهكم والاستهزاء، لعجزه عن الرد، فليس هناك ما يرد به على الحقيقة. كما جعل المعنيين برسالة موسى هم الحاضرين عنده، وأخرج نفسه منهم، وجعلها إليهم، بإبعاد نفسه عنهم ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ﴾ على سبيل الاستهزاء، والاستعلاء. بل ويستهزئ كذلك بربه سبحانه وتعالى الذي أرسل موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ فالمرسل هو الله تبارك وتعالى. ثم يجمع معها التهكم بموسى عليه السلام، واصفاً إياه بالحنون ﴿ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي أنه بهذا الكلام الذي قاله فإنه من ضروب الجنون. فيحاول فرعون بذلك صرف عقولهم عما سمعوه من الحق، حتى لا يتأثروا بما سمعوا.

فرد موسى عليه السلام على تجاهل فرعون واستهزائه برسالة ربه المؤكدة على ربوبية الله تعالى، ونفي ربوبية غيره، كما يدعي فرعون بأنه ربهم ومعبودهم ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

فقد نقلهم موسى إلى آية الشروق والغروب بأسلوب استجمع فيه آية طلوع النهار، وآية طلوع الليل ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ فإن الله رب العالمين هو رب المشرق، الذي تُشرق منه الشمس، فيظهر النهار، وكذلك هو رب المغرب ﴿ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ الذي تغيب منه الشمس، فيأتي الليل بظلامه. بما يفيد التنبيه لأعوانه وجلسائه بأن فرعون لا يستطيع التحكم في آية الليل والنهار، فهل فرعون الذي يَدَّعِي الألوهية يستطيع ذلك؟ أو يستطيع أن يجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً. ففيه بيان لكذب فرعون في ادّعَاء الربوبية، وإبطال ألوهيته التي يزعمها.

ويضيف للجهتين ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ ليشمل جميع ما يشاهدونه ويعرفونه كالكواكب والشمس والقمر، وما لا يدركونه من المسافة والمخلوقات التي لا يعرفونها، ولا يعرفها فرعون الذي يدعي الربوبية. وفي هذا إظهار شأن رب العالمين بتصغير ملك فرعون، ومحدوديته، إذ لا يملك إلا عدداً معدوداً من الخلق بالقهر والإذلال، مع مساحة صغيرة محدودة من الأرض. بما يُبطل به ادِّعَاء فرعون الباطل. ثم يوجههم إلى التعقل ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فإن كنتم تعقلون ما ترون وتبصرون فقد ظهرت لكم الحقيقة، بأن الكون ملك مَن خلقه، وهو رب العالمين. رب المشرق والمغرب وما بينهما التي يعجز فرعون عن أن يملكه بكذبه وادعائه الباطل. فردهم موسى عليه السلام إلى الحقيقة الظاهرة البائنة التي لا ينكرونها. ويستثير بذلك في عقولهم التفكير، مما يبين عند إقامة الحجة أهمية إثارة الفكر نحو تأمل دقائق الحجج، والانتباه لها.

وهنا ينتقل فرعون إلى جبروته وتسلطه، بما يبين عجزه عن الرد على موسى، فيهدده بالسجن ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ فقد رجع فرعون إلى دائرة الاستعلاء لمعالجة عجزه وإعيائه عن الرد على تلك الحجج القائمة. وكذلك لمعالجة ما أصبح يدور في عقول أعوانه ووزرائه ومستشاريه من انكشاف الحقائق. فيهدد موسى عليه السلام بالسجن ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ إن عبدت غيري لأجعلك ضمن المسجونين في سجوننا. فينتقل به موسى وبمن حضر إلى آية خاصة، فيشد انتباههم وعقولهم إليها بالسؤال الذي يفيد الاستفسار عن رغبتهم في مشاهدتها ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ فيقول موسى لفرعون أتسجنني حتى وإن أتيتك ببرهان قاطع جلي، يُظهر صدقي فيما أقول. وهو سؤال استفهام، يفيد الإنكار على تهديده بالسجن، وسماه ﴿ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ليفيد قوته وهَوله ووضوحه وظهوره، بأنه شيء مهول، يقطع بأني رسول من الله رب العالمين.

ومباشرة طلب فرعون أن يُظهر هذا الدليل ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ هات هذه البينة إن كنت صادقاً فيما تدعي أن الله رب العالمين، وإن كنت من فئة الصادقين. مما يدل على تشوقه لمعرفة هذا البرهان المبين، بما يفيد عدم سجنك إن أتيت به، وكنتَ محقاً وصادقاً فيما تقول. وهنا لم يبين فرعون عن إيمانه إن كان البرهان والدليل ظاهراً. فباشر موسى عليه السلام في إظهار الشيء المبين ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فألقى موسى عصاه ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ أي: وضع عصاه التي بيده على الأرض أمامهم ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فإذا بها تتحول وتنقلب ثعباناً، أي ذَكَراً من ذُكُور الحيَّات، يمشي ويتحرك، لا ينكرها أحد. مؤكداً بجملة ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ما يدل على أنه ثعبان واضح من كل وجه، فانقلبت العصا ثعباناً حقيقياً، وليس تخيلاً، ولا شبيه للثعبان بل حقيقة، فكلمة ﴿ مُّبِينٌ ﴾ وصفت الثعبان بالوضوح والحقيقة في شكله وحركته وقوته حقيقته، فلا مجال لتكذيبه، أو التوهم بأنه على غير الحقيقة كما يفعله السحرة. وهذا من دقة الحجة والبرهان، ودقة عمق البيان الكريم في الوصف.

ثم بادر موسى بالآية الثانية ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ فأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي تتلألأ نوراً لكل مبصر، فلا شك ولا ريب بأن تحولها كان بقدرة الله تعالى. وعَبَّر عن إخراج يده من ثوبه بالنزع ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ الذي هو فصل شيء عن شيء، ومنه نزع الملابس، أو الثوب. أي: أخرج يده وأظهرها من ثوبه، بعد أن أدخلها فيه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ فكانت لجميع من كان ينظر إليها بيضاء، دون استثناء، مما يدل على أن طبيعتها وحقيقتها في تلك اللحظة بيضاء، بياضاً حقيقياً، فليست تصنعاً. وقد ورد في سورة طه: أنها من غير سوء ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ إي: فإنك إذا أخرجت يدك من المكان الذي أُمرت بوضعها فيه، وهو داخل الرداء، فإن يدك تخرج مُتلألئة نوراً ساطعاً، أبيضاً من غير سوء، أي: من غير شيء يشينك، وفي هذا الاحتراز ما يفيد التطمين. فإن خروج يدك بيضاء لا يعني الأذى كالبرص ونحوه، لكنه بياض نور. فهذه آية إضافية على التي قبلها، وهي العصا. فهذه أدلة وبراهين عظيمة لفرعون وقومه بأن موسى وهارون عليهما السلام رسول رب العالمين. فلا يعاندها إلا جاحد.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ

إن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وبعد أن رأى فرعون وأعوانه من الوزراء والمستشارين والْحُرَّاس آية العصا، وبياض اليد من موسى عليه السلام، حاد فرعون عن الحق، واتهم موسى بالسحر ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فلما شعر فرعون أن معجزة موسى عليه السلام ستكشف ما هو عليه وقومه من الباطل؛ قال لمن عنده ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ﴾ وهم أعوانه، من أشراف القوم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فهذا الذي رئيتم هو من باب السحر، فوصف موسى عليه السلام بالساحر ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ ﴾ ثم أكد قوله في إلصاق السحر بموسى بأنه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي: خبير بهذا السحر، فليس هيناً به. فاعتبر هذه الحجج، وهذه الآيتين الكريمتين العظيمتين من أعمال السحر، الذي هو أخذ عيون الناس إلى الخداع البصري، حتى يُخَيَّل إليهم أن العصا حية، وأن الشيء بخلاف حقيقته. فوصف موسى بصفة الساحر ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: مُتقنٌ ومتعمقٌ في معرفة السحر، بأخذه عيون الناس بالخداع، حتى يتخيل الرائي أن العصا حية، واليد قد تغيرت إلى هذا البياض الساطع. فنفى أن تكون تلك آيات إعجاز، وبراهين صدق على نبوة موسى عليه السلام. فإن ذلك من قَبِيلِ السحر، لا من قبيل المعجزة والبرهان على أنه رسول. مما يدل على قوة تعاليه وخوفه على ما هو فيه من السلطان والجاه. فيريد أن يصرف أعوانه عن الحقيقة، وعن أن يصدقوا بموسى عليه السلام. فَيُرَوّجُوا له بين الناس أنه رسول الله رب العالمين.

ثم هَوَّل عليهم فرعونُ مرادَ موسى وعَظَّم عليهم أهدافه التي يأبون حصولها ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فانتقل هنا من الحكم عليه بالسحر إلى تأويل وتفسير مقصده بما نسبه إليه من السحر ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ فإن هدف موسى هو إخراجكم من أرض مصر يا معشر القبط بهذا السحر. فوضع هذا التفسير افتراء من عنده لقصد تهييج الناس ضد موسى وهارون عليهما السلام ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فبأي شيء تشيرون، وأنتم حاشيتي وأعواني.

وبهذا الطلب ﴿ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ يستميل قلوبهم، ويعطف تفكيرهم وعقولهم على مراده، مع غرس الخوف في قلوبهم من موسى، وإثارة استعدائهم له. فيتحقق مراده بهم. وفي هذا دليل على خوفه وخواره أمام موسى وهارون عليهما السلام، إذ كيف يطلب منهم الرأي وهو يَدَّعِي أنه ربهم الأعلى، فالرب ليس له مستشارين، لأنه غني عن غيره. بل طلب فرعون منهم الرأي بصيغة الاستضعاف ﴿ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ فيتذلل حتى يتمكن، ثم يعود لطغيانه. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: جعل العبيد آمرين، وربهم مأمور لِمَا استولى عليه من فرط الدهش والحيرة[١] مما يبين قوة المكر والمخادعة بقومه، حتى إذا تمكن عاد إلى عنفوانه وطغيانه وجبروته.

وهذا القول من فرعون ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ مشابه ومتوافق مع ما قاله قوم فرعون لفرعون في سورة الأعراف وهو ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ مما يفيد توافقهم، وتناقلهم ما قاله فرعون، فأخذوا برأيه، فأعادوه جواباً موافقاً لجواب فرعون. ونشروه بين أقوامهم.

فأجاب قوم فرعون على سؤال فرعون الذي هو ﴿ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ أن قالوا بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ فأشاروا على فرعون بأن يأخره وأخاه ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ ريثما ترسل في مدن مصر مَن يجمع السحرة ﴿ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي: ابعث الجنود والعساكر الذين يجمعون لك الناس. والحاشرين: جمع حاشر، الذين يجمعون الناس، فيحشرونهم في المكان المحدد لهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما عن معنى كلمة: حاشرين، اي: الْشُّرَط[٢] أي رجاله المختصين بمثل هذا الأمر، مما يدل على هول ما أصابهم من الآيات الباهرات التي أظهرها موسى ﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴾ فينتقوا ويجمعوا لك كل ساحر متصف بالخبرة والبيان والقوة في سحره وبالتجربة التي ظهر بها علمه بالسحر، أي سيكون هناك انتقاء، يعتمد على قوة المهارة، والحذق في صناعة السحر، فلن يجمعوا لك الكثرة منهم فقط، بل سينتقون ويصطفون لك من السحرة الْحُذَّاق المهرة بالسحر، حتى يواجهوا موسى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٣٠٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٣٥١)

والذي يتدبر ويتأمل ذلك الحدث؛ يرى فضل الله تعالى في تصريف شأنهم، فلم يبادروه بالقتل، ولا بالأذى، ولكن بادروه بما سوف يُعلن به موسى صدق أمره، وصدق رسالته، وقوة حجته، فينتشر بذلك خبر صدق نبوته بين الناس، وهذا من تدبير الله تعالى، خاصة إذا عَرَفَ الناسُ أن الذين جمعهم فرعون من السحرة هم الأعلم بالسحر.

ثم ينتقل البيان إلى توضيح مجريات اللقاء بالسحرة بعد أن جمعهم فرعون، بناء على اقتراح أعوانه ومستشاريه ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴾ فقد تم جَمْع السحرة ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ أي: فاجتمع البارعون، المتقنون للسحر ﴿لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴾ وهو يوم الزينة الذي اقترحه موسى عليه الصلاة والسلام عليهم، كما في سورة طه ﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ فهو يوم عيدهم، الذي هو يوم الزينة، وفي نسبة الزينة لذلك اليوم ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ باعتبار أنه اليوم الذي يتزيَّن الناس فيه ويجتمعون، فهو يوم مشترك لهم، ثم بين موسى عليه السلام الوقت من ذلك اليوم، كما هو في سورة طه. ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾

ثم يبين سياق القرآن الكريم أنه بعد أن حُدِّدَ الموعد، واجتمع السحرة. فإنه تم جمع الناس للمشاهدة ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴾ فأُخبر الناس بأسلوب الحض الاستفهامي على الحضور ومشاهدة المنازلة بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين السحرة، وفي مثل هذا الشأن يندفع الناس لمعرفة لمن تكون الغلبة، وخاصة أنه يوم عطلة وعيد. واستدفع فرعون الناسَ وحضهم على لمشاهدة بأمنية الفوز ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴾ لعل أن يكون الفوز للسحرة على موسى، فتكون المتابعة منا لهم وليس لموسى، وكذلك فيه حض السحرة بهذا القول على بذل أقصى جهدهم. بكلمة ﴿لَعَلَّنَا ﴾ التي تفيد ترجي الفوز من السحرة، ثم أتبعها بأنه سيتلو ويعقب فوز السحرة متابعتهم وإعلاء شأنهم بالمتابعة لهم ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ ثم يزداد التحضيض بوضع الفوز تحت الاحتمال ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴾ حال كونهم فازوا فإن المتابعة تكون لهم، لرفعتهم، وعلو شأنهم.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان اجتماع كبار السحرة عند فرعون، ومطالبهم إن كانت الغلبة والفوز لهم على موسى عليه السلام ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴾ فحين

جاء السحرة لمجلس فرعون ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ فاجتمعوا بفرعون في مجلسه تشارطوا على الأجر الجزيل الثمين من العطاء حال إن حصلت لهم الغلبة ﴿ قَالُوٓاْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾ فإن لنا مقابل الفوز أجراً مجزياً إن تحقق الفوز لنا. وأفادت كلمة ﴿ لَأَجۡرًا ﴾ تعظيم العطاء دون تحديد له، ولكن الشرط أن يكون جزيلاً، لأن كلمة أجراً جاءت نكرة في سياق عمل كبير، وأيضاً أن مُقدِّم الأجر هو فرعون صاحب الأموال الطائلة، فوافق فرعون على مطلبهم ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ فوافق على مطلبهم مع الوعد برفع مكانتهم ليكونوا من جلسائه وخاصته وحاشيته؛ فيحظوا بالقرب منه. فكلمة ﴿ نَعَمۡ ﴾ أفادت موافقته على مطلبهم، ثم زادهم ﴿ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ التي تفيد أن ذلك زيادة على إعطائكم ما أردتم، فإني أزيدكم بحظوة القرب، والمكانة والمنزلة مني.

وعند اللقاء طلب موسى من السحرة إلقاء سحرهم، بعد أن عرضوا عليه أن يختار من يبدأ كما في سورة الأعراف، وفي سورة طه ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴾ فاختار موسى عليه السلام أن يكون البدء منهم ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾ فألقُوا ما تريدون من أنواع سحركم، دون شرط منه لهم. بما يفيد عدم المبالات بما سيضعون من السحر، لعلمه بعظيم قدرة الله تعالى ونصرته له، وإبطال الباطل ودحره. كما أن في هذا حكمة جليلة، بأن ينظر الناس إلى هول سحرهم، فيتعجبون من ذلك، ويذهلون منه، فيتصورون صعوبة ما سيكون من حال وأمر موسى عليه الصلاة والسلام معهم، وربما يتوهمون من هول ما يرون أن الغلبة والفوز سيكون للسحرة، فإذا رأوا آية الله تعالى تلتهم ذلك الهول الرهيب من الحيات أدركوا حالاً أن ذلك لا يمكن أن يكون إلا من الخالق سبحانه وتعالى، فكيف لحية واحدة تلتهم آلاف الحيات.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من السحرة ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ فوضعوا عصيهم وحبالهم ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ ﴾ أي: استعنا بقوة وقدرة فرعون وسطوته الغالبة، على أنها لا يغلبها شيء، كما يعتقدون ﴿ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ فنحن الغالبون والمنتصرون على موسى. بما يفيد جزمهم بذلك. فلما ألقوا عصيهم وحبالهم أصبحت من قوة سحرهم يخيل لمن يشاهدها أنها حيات تسير على بطونها. ثم باشر موسى بإلقاء عصاه ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾ فعندما ألقى موسى عصاه ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾ فإذا بها تلتهم وتبتلع ما فعلوه من السحر، وسَمَّى الله تعالى

سحرهم بالكذب ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ لأن الذي صنعوا هو أنهم سحروا أعين الناس فقط، وأما الحبال والعصي فكانت على حالها لم تتغير، فلما التهمت عصا موسى جميع ما ألقوا من العصي والحبال، فلم يبق في الساحة شيء غير عصا موسى التي تحولت إلى ثعبان عظيم فالتهم ما أمامه من المسحورات. ثم عادت عصا موسى عليه الصلاة والسلام كما كانت. فلم يظهر عليها خلاف ما كانت عليه قبل الإلقاء.

ومن آيات الله تعالى في عصا موسى عليه الصلاة والسلام أنه لا أحد يعرف أين استقرت تلك الأشياء التي ابتلعتها عصا موسى عليه السلام، إذ لم يظهر عليها الانتفاخ والتضخم، غير أنها عادت عصا كما كانت. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً، ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي، حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً، جهرة، نهاراً، ضحوة[1] فقامت المعجزة، وأظهر الله تعالى رسوله ودينه، وأعزهم ونصرهم على الباطل، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

فكان ردت فعل السحرة هو سرعة الإيمان بالله تعالى مباشرة، وبما جاء به موسى وهارون دون تردد ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ فقد آمن السحرة بسرعة مذهلة، دون الرجوع إلى فرعون، بما يدل على أنه لم يكن للخوف من فرعون مكاناً في نفوسهم. وبما يدل على استسلامهم الكامل لله تعالى، دون أي اعتبار لكائن من كان، وذلك بإلقاء رؤوسهم وجباههم على الأرض سجداً لله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فأعلنوا إيمانهم برب العالمين، الذي أنكره فرعون، بصيغة الاستهزاء حينما قال لموسى متسائلاً: ومن هو رب العالمين. بينما أقر السحرة بسرعة مذهلة، فأعلنوا استسلامهم لله تعالى بالسجود له عَزَّ وجل. ليدل ذلك على قوة تأثرهم بما رأوا من عظيم وعظمة آية الإعجاز المبهرة؛ التي التهمت كل ما كان مُلقَى من حبالهم وعصيهم وبسرعة رهيبة ومذهلة، وقدرة عظيمة. والتي من عظمتها أنه لا أحد يعرف كيف استوعبت عصا موسى عليه السلام ما ابتلعته من العصي والحبال، وأين مصير ما التهمته. ثم أكدوا إيمانهم بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ فأعلنوا اعترافهم بأن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام رسولان من الله سبحانه وتعالى.

ومن فوائد البيان ما تم ذكره في سورة طه، ويُعاد لمزيد الفائدة: فإن من فوائد دقائق السياق الكريم قوله تعالى ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أن الفعل ﴿ فَأُلْقِيَ ﴾ أفاد أن الحدث الذي شاهدوه قد ألقاهم سجداً، ليدل على قوة التأثر، وسرعة المطاوعة والامتثال والاستسلام منهم لآيات الله تعالى. إذ لم يُذكر فاعله الذي جعل السحرة يسجدون، لإبراز وإظهار قوة الإلقاء وإبرازه، لأنه المعبر عن قوة تجاوبهم، وإلا هو معروف

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٦/٣)

من الموقف. ليعطي دلالة عميقة على أثر قوة آية الإعجاز التي أرغمتهم على السجود نتيجة قوة تأثيرها الذي أذهلهم، فأدركوا بها أن موسى وهارون رسولا من عند الله تعالى، فكأنما شيء ألقى بهم سجداً، لإفادة أن قوة آية العصا ألقت بهم سجدا. لِيُظهِر النص الكريم قوة أثر معجزة عصى موسى عليهم، وكأنها هي التي ألقت بهم سجداً.

وكذلك من إبداع وإعجاز النص الكريم إظهار قول السحرة بما يوضح موقع هارون من موسى عليهما السلام ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ فأعلن السحرة إيمانهم برب هارون وموسى، مع ذِكْرِهم للرسولين معاً ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ فلم يقولوا آمنا برب موسى على اعتبار أنه الذي ألقى العصا، وذلك تأدباً مع الرسولين الكريمين، وكذلك فيه دلالة على ما رأوا من حفاوة موسى بأخيه هارون الذي يكبره سناً، وكذلك فيه دلالة على ظهور هارون عليه السلام في ذلك الموقف بما عرفوا أنه رسول مع أخيه موسى الرسول النبي، وأنه قد ظهر منه لأخيه موسى عليهما الصلاة والسلام التعاضد والوفاء والطاعة، وأنهما خرجا أمام الجمع بأنهما يمثلان أمراً واحداً، وهو أداء رسالة الله سبحانه وتعالى. وفي تخصيص إيمانهم برب هارون وموسى، ما يدل على استسلامهم الكامل لله تعالى، مع موافقتهم الكاملة لكل ما جاء مع هارون وموسى عن الله تعالى.

وقد ورد في سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء تقديمهم لموسى على هارون ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ وقدما في سورة طه هارون عليه الصلاة والسلام ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ وتعليل ذلك: أنه ربما باعتبار كثرتهم، أي كثرة السحرة، فمنهم من قدم موسى، ومنهم من قدم هارون عليهما السلام، فسجل القرآن ذلك، كما أن في تكرار تقديم موسى على هارون مرتين، في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء، ما يدل على أنهم الأكثرية. بينما ورد تقديم هارون على موسى مرة واحدة بما يدل على أنهم الأقل عدداً. والله تعالى أعلم. وهذا من الإعجاز في البيان الذي أظهر براعة ودقة السياق في القرآن الكريم، وأنه دقيق حتى في مقاصد التقديم والتأخير.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

لم يتحمل فرعون النتيجة التي صدمته صدمة عنيفة، مع ما كان من السحرة من إعلان إيمانهم على الملأ. فكان الأمر على عكس وضد ما كان يرجوه منهم ويتوقعه، فبادرهم بأشد العقوبة وأنكاها ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فنهرهم بسؤال استنكار وتعجب، وتهديد ووعيد وترهيب ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ فوجه فرعون للسحرة المؤمنين، سؤالاً عتابياً وتهديداً شديد اللهجة والعقوبة عن كيف تؤمنون قبل أن تأخذوا الإذن والموافقة مني، فشعر أن ولايته أصبحت لا قيمة لها، وأن ملكه قد اهتز، فابتدأهم بسؤال استنكار وتقريع وتهديد، أتصدقونه وتؤمنون به دون الرجوع إليَّ في ذلك، فقد تجاوزتم وتعديتم ما لم آمركم به، وخالفتم رغبتي ومرادي. ليعبر عن دهشته من تصرفهم، وانقلاب كيده عليه بأقوى ما يكون، وهو الذي يقول للناس: أنا ربكم الأعلى. فشعر بالهزيمة والخذلان، بل رأى سقوط هيبته أمام الجماهير التي احتشدت لهذا الموقف المهيب. فكشف وأوضح السؤال عن حالته النفسية، وظهر بالمقابل قوة وسرعة إيمان السحرة أمام تهديده ووعيده. فهو يرى أن له الحق في الاستئذان منه، بأن يشاوروه، ويستأذنوا منه. والحقيقة أن الإيمان بالله تعالى قرار ينبثق من القلب، وأن من آمن لا ينتظر أن يوافق على إيمانه أحد من البشر.

وهنا يتحول موقف فرعون تجاه السحرة إلى اتهامهم بالخيانة، فأورد التهمة لهم ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ فإن من مكره أنه فَسَّر وأَوَّلَ الأمر بطريقة الكذب والبهتان المبين، حيث أوجد سبباً من العدم، ليصرف عن إيمانهم غيرهم من الناس المتجمهرون أمام الحدث ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ فإن موسى هو كبيركم الذي علمكم هذا النوع من السحر الذي قدمتموه أمام الناس، لينتصر موسى ويفوز أمامهم، ويُثبت للناس أن الحق معه. مما يدل على دهائه. إذ يتهم السحرة حتى يُبعد الناس عن الحق، ويبرر للناس أن فعل السحرة هذا باطل غير صحيح، لخروجهم وعدولهم عن الباطل الذي يريده إلى الحق الذي لا يريده. مع سرعة انحرافه وتغيير موقفه من السحرة ومن الانتصار بهم إلى اتهامهم بالتواطؤ مع موسى عليه السلام بسحرهم، بل واتهمهم بأن موسى عليه السلام هو كبيرهم الذي علمهم هذا النوع من السحر الذي نَفَّذُوه أمام الناس، ليفوز موسى، ويُثبت أن الحق معه. وهذا القول من فرعون هو لأجل أن يصرف عقول وقلوب الناس عن متابعة السحرة في الإيمان، حتى لا يتأثروا بالحق الذي رأوه، وعن الاقتداء بإيمان السحرة، وقبول الحق، ونبذ باطله وكفره. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أراد فرعون بهذا القول أن يُدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم مواصلة[1] مما يفيد

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٧٦)

أن الجاحد للحق يبحث ويتأوَّل التُّهَم لمن خالفه، ويُلصقها بهم، ليحكم فيهم بما يريد. بل إن الحقيقة تقول: أن السحرة تعلموا السحر قبل أن يأتيهم موسى عليه السلام، إذ يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تحليله لذلك: قال فرعون: آمنتم له قبل أن آذن لكم، إنكاراً منه عليهم. أي تعديتم وفعلتم ما لم آمركم به. إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، أي رئيسكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذق منكم. وإنما أراد فرعون بقوله هذا حتى يُشَبِّه على الناس، حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم. وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد عَلِمُوا السحر قبل قدوم موسى وولادته[١] فهي تهمة افتراء على السحرة، حتى يقرر عليهم ما يعاقبهم به، ويصد الناس عن الاقتداء بالسحرة في إيمانهم، وهذا من دهائه، وقوة مكره وكيده.

ثم بعد تحرير التهمة لهم، يتوعدهم بالتهديد المبطن ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فسوف ترون حتماً وجزماً مني شيئاً عظيماً، دون بيانه لهم، لترهيبهم، وإدخال الفزع في قلوبهم، فلم يرعنوا له مع هذا التهديد، فانتقل إلى بيان ما سيكون منه معهم، فكان أول ذلك النوع من التهديد ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ أي: المخالفة في قطع الأطراف، فيقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى. وفي هذا تعذيب بالألم والتشويه لهم، فيتحقق لهم الألم من شدة ما أصابهم ظلماً وزورا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان أول من صَلَبَ، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون[٢] والنوع الثاني من التعذيب على فعلهم وإيمانهم الذي صدموه به هو الصلب ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: لأقيدكم وأشدكم وأربطكم على جذوع النخل.

فكان ردهم على قدر إيمانهم القوي ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ فقالو لفرعون: ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ لا ضرر علينا، بما يفيد لن نبالي بتهديدك ووعيدك. ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ فلن نبالي به، لأننا راجعون بموتنا إلى ربنا، فيجازينا على ما يصيبنا بخير الجزاء وأحسنه وأكمله. فإنه يعقب تعذيبك لنا النعيم المقيم عند ربنا عَزَّ وجل. فكان جوابهم جواب المؤمن الصادق، فهذا تقرير منهم بالبعث بعد الموت، فقد تحقق في إيمانهم أن الرجوع إلى الله تعالى متقرر، وبالتالي فإن ما يجدونه عند الله عَزَّ وجل خير مما يجدونه عند فرعون، وأن عذاب فرعون لهم أخف من عذاب الله تعالى لهم ولمن كفر، فالقياس قياس إيمان. ليتبين أن مقاييس الإيمان تُوجِد الصبر والتحمل. والطمع فيما عند الله تعالى. اللهم قوي إيماننا، واجعلنا لك طائعين مخبتين، وأجرنا من الابتلاء.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٠/١١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٨/٢)

ثم يبينون ويعلنون ما يرجونه من الله تعالى من المغفرة لما سبق من الذنوب التي كانت قبل إيمانهم ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن أملنا في الله تعالى أن يغفر لنا ما كان من ذنوبنا، وما أكرهتنا عليه من السحر، معللين ذلك الأمل والطمع ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لمبادرتنا للإيمان قبل غيرنا. وبما يفيد أن المؤمنين سيزدادون، لوضوح الحق، فنحن أولهم، وسيلحق بنا غيرنا. وفي هذا تعليل يشد غيرهم للحاق بهم.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى ختام إجمالي للموقف بما انتهى إليه أمر فرعون وقومه وأعيانه. مُبْتَدِئا سبحانه وتعالى ذلك البيان بما وجَّهَ به موسى عليه السلام ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ فَيُخبر الله تعالى المخاطبين بالقرآن الكريم أنه عَزَّ وجل أوحى إلى كليمه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام بما يجب أن يسير عليه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أُخرُج ببني إسرائيل أول الليل جهة البحر. وليكن ذلك ليلاً، لأن كلمة السري تعني الذهاب سيراً في الليل، وفي هذا التوجيه الكريم ما يفيد أهمية الاتقاء والحذر، من خلال الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى هو الحافظ، وهو الذي أمر بالأخذ بالأسباب، لأنها سنة الله تعالى في تدبيره وتشريعه. ومن دقائق البيان أن أضاف المؤمنين الذين مع موسى إلى ذاته الكريمة ﴿ بِعِبَادِيٓ ﴾ تشريفاً وتكريماً لهم.

وقد علل الله تبارك وتعالى هذا الأمر بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ فأخبرهم العليم الخبير بما سيكون قبل أن يكون، حتى يقضي الله تعالى في فرعون ومن معه قضاءه فيهم بالغرق. وقد أكد الله تعالى لموسى ومن معه ذلك بحرف التأكيد **(إن)** المتصل بضمير الْمُخَاطَب ﴿ إِنَّكُم ﴾ ولم يُظهر مبنى السياق الذي سيتابعهم ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ لأنه أمر معروف بأنه ليس غير فرعون وجنوده. وهذا من جزالة البيان الكريم.

وقد طوى تبارك وتعالى ذكر الزمن الواقع بين ظهور موسى عليه السلام على فرعون والسحرة، وإسلامهم، وبين ما أوحى به إليه بالذهاب ومن معه ناحية البحر. وهو زمن قد مكث فيه موسى يدعو الناس إلى الله تبارك وتعالى. وقد بسط الله تبارك وتعالى تفصيلاً لذلك في غير هذه السورة الكريمة. وهذا من جزالة منهج القصص في القرآن الكريم عند تكرار أحداث القصة، بأن يكون التفصيل في التكرار وفق مقتضيات السياق. فإن في تكرار ذكر القصة بيان لأوجه ومقتضيات ودلالات بأسلوب ومضامين وفوائد غير التي في غيرها، وعندما يقتصر ويبسط فإنه بحسب الهدف والغاية والمقام والمقال المناسب الذي وردت فيه القصة،

وهذا أسلوب بديع في القرآن الكريم، يستحق دراسة عميقة، تُستكشف فيها عظيم براعة القصص وتكراره في القرآن الكريم، وما فيه من إعجاز البيان والأسلوب والمقاصد، والحاجة والغاية للمعالجة.

وأما عن الفترة الزمنية المشار إليها فهذا ملخصها مما قاله السعدي رحمه الله تعالى: لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه. وكان فرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، حتى اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه. فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، فأوحى إلى نبيه موسى بأن يسري بعباده ليلاً[١] وهذه من حكمة الله تعالى، ودقة تدبيره، وعظيم علمه عَزَّ وجل، حيث أخبرهم بما سيكون من فرعون وجنوده قبل أن يكو. وحتى يقضي بما شاء في حق فرعون وجنوده من الغرق، ويقضي في حق موسى عليه السلام وبني إسرائيل الذين كانوا معه من ميراثهم للأرض التي عينها لهم سبحانه وتعالى.

فحين بلغ فرعون العلم بما كان من موسى وبني إسرائيل من خروجهم، فقد تعقبهم، فأرسل من يجمع جنوده وجيشه من المدن والقرى ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ والحاشرين: جمع حاشر، الذين يجمعون الناس، فيحشرونهم في المكان المحدد لهم. أي فأرسل النقباء والشرط والحجاب ينادون في المدن والقرى أفراد الجيش. ثم وصف بني إسرائيل بالقلة والضعف ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ ويقصد بقوله ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ أي: طائفة، وعصابة محتقرة بقلتهم، فوصفهم بالقلة ﴿ قَلِيلُونَ ﴾ أي: قلة محتقرة، بل وفي استخدام اسم الإشارة في مطلع الجملة ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ما يدل على تحقيره لشأنهم، مع تأكيد ذلك بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾.

ثم يبين إلى جانب قلتهم وحقارتهم عظيم غيظه منهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ فإنهم يشكلون لنا غيظاً بتصرفاتهم. وسماه غيظاً لأنه أشد أنواع الغضب، بما يفيد أنهم في نظره قد تجاوزوا وبالغوا في العمل بما يُغضبه، وذلك بعمل ما ينافي مراده، فيغيظوننا بتصرفاتهم على حقارتهم وقلتهم. فمن ذلك خروجهم من غير إذننا. وأفادت اللام في كلمة ﴿ لَنَا ﴾ القوة والشدة فيما كان منهم من الغيظ لفرعون خصوصاً. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: واللام في قوله ﴿ لَنَا ﴾ لام التقوية[٢] لتقوية مقدار ما أصابه من الغيظ.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٤٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨/٣٦٣)

ثم يحفز فرعون أعوانه وجنوده ومن معه بالحذر ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ وإنا لجميع متيقظون لما قد يحصل منهم، مما يدل على فزعه، وتغطية فزعه بأنه مصاب للجميع، ولذلك استنهض الجميع بأنهم مدركون ومتيقظون لما قد يحصل من بني إسرائيل. وفي نفس الوقت يستنفر الجميع بالحذر من بني إسرائيل، وذلك بصيغة الجمع ﴿ وَإِنَّا ﴾ فيضع نفسه واحداً منهم، ويؤكده بدلالة الجمع ﴿ لَجَمِيعٌ ﴾ الموجب للحذر ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ بالحذر واليقظة والاتقاء منهم، بما يفيد يقظة الجميع والتأهب لما قد يحصل منهم، من أجل أن يستلهب قومه جميعاً. مما يدل على هلعه وفزعه من هذه القلة المؤمنة. ومما يبين أن مِن جنود الله تعالى الخوف والفزع الذي يقذفه الله تعالى في قلوب من يريد لهم أمراً. والاستدراج للوقوع في الهلاك. فإن جنود الله تعالى لا حصر لها، فكل شيء هو جند لله تعالى إذا أراد استخدامه في أمر من الأمور بما يشاء سبحانه وتعالى. مما يقوي إيمان المؤمن، ويُحذِّر الكافر من جنوده عَزَّ وجل، حتى نفس الإنسان قد تكون جنداً لله تعالى ضد صاحبها، بما يقذفه عَزَّ وجل في القلب. فسبحان الله القوي العزيز.

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

ثم يخبر ويبين سبحانه وتعالى عن كمال قدرته، وكيف يُقَلِّب الموازين بين العباد، فيجعل الْمُستَضعَفُ، هو القوي، ويجعل القوي هو الضعيف أمام الحق. ويجعل صاحب العز والْمُلْك مغلوباً ومقهوراً، أو يهلكه بما يشاء من الهلاك والدمار، ويجعل من كان مقهوراً ومُسْتَضْعفاً الأقوى والأعز والأكرم. فيبين سبحانه وتعالى كيف أخرج فرعون وجنوده مما كانوا فيه من الخيرات والمقام الكريم في أرض مصر، إلى الهلاك بالغرق في البحر ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: أخرجنا فرعون وقومه في متابعة موسى ومن معه، حين اتجهوا إلى البحر ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم ﴾ وفي هذا مثار تفكير وتأمل، في قدرة الله تعالى على دفع وإثارة قلوبهم لمتابعة وملاحقة موسى عليه السلام ومن معه، ليحصل لهم الهلاك. فخرجوا مِن عَظيم النعمة التي كان فيها فرعون وقومه، إلى الغرق ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وبالتالي خرجوا من نعمة الجنان والزروع. وهي البساتين والمزارع الكثيرة والكبيرة التي على ضفاف نهر النيل في مصر. وكذلك أخرجهم ربهم تبارك وتعالى من نعمة أخرى، وهي

﴿وَعُيُونٍ﴾ وهي خلجان النيل، أي: ما يُحفر على فروع النيل. وكذلك أخرجهم العزيز الحكيم من نعمة المال ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي الأموال الكثيرة الْمُدَّخَرَة من الذهب والفضة والجواهر وغيرها، وفي وصفها بالكنوز دلالة على ادِّخَارها وتخزينها لكثرتها، وأنها محفوظة فيما يصونها من الأمكنة. وتركوا كذلك نعمة المكان ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهو المكان الذي يقيمون به في أرض مصر، وما فيه من القصور والمساكن الفارهة التي ينعمون بها، وسماه الله تعالى بالكريم ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ لكرامته مما فيه من نعيم المقام، الذي توفرت فيه جميع ما يحتاجه المقيم من البساتين والزروع، والمياه المتدفقة، والأموال الكثيرة، مما يدل على نفاسة المكان، ونفاسة المقام، وكثرة الرفاهية. بما يدل على كريم عطائه سبحانه وتعالى لهم من الخيرات، التي كان الأولى بهم شكرها بطاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله موسى عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله تعالى إليهم، ولكنهم قابلوا النعمة بالكفر والجحود، فكان جزاء كفرهم هو مفارقة النعمة، وحلول العذاب، بالهلاك والغرق في البحر. فاعتبروا أيها الناس مما قصه ربكم عليكم.

ثم يبين تبارك وتعالى جزاء المؤمنين، وتحقيق الخير والنصر لهم ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فجميع تلك الجنان والعيون والكنوز قد أورثها الله تبارك وتعالى بني إسرائيل. فهكذا أخرجنا فرعون وقومه، وأورثناها بني إسرائيل الذين كان يستضعفهم فرعون وقومه. فأصبح المستضعفون هم العالين.

وقد زادهم الله تعالى على ذلك، بأن أورثهم بلاد الشام، كما قال عَزَّ وجل في سورة الأعراف ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قيل هي مشارق الشام ومغاربها، وقيل هي مشارق أرض الشام ومصر، وقيل هي على الاطلاق، في شرق الأرض وغربها[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والظاهر أنهم ورثوا أرض القبط[٢] وأشار شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله إلى أنها أرض الشام، فإن الله تبارك وتعالى أخبر أنه بارك في أرض الشام في آيات، ومنها هذه الآية[٣] ولعل المقصود بمشارق الأرض بلاد الشام، ومغاربها بلاد مصر. فمصر غرب الشام، والشام شمال شرق مصر.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧١/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٣/٧)

(٣) ابن تيمية، الفتاوى (٣٢/١٥)

ثم يعود السياق إلى بيان ما كان من فرعون وجنوده في متابعة موسى عليه السلام ومن معه ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي: كان وقت شروق الشمس. وتفيد كلمة ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ سرعة اللحاق بموسى عليه السلام ومن معه. وتبين كلمة ﴿مُّشْرِقِينَ ﴾ وقت وساعة الملاحقة لهم، أنه وقت شروق الشمس، أي: في أول ظهور النهار.

ثم يبين سبحانه وتعالى حال بني إسرائيل عندما رأوا فرعون وجنوده قد لحقوا بهم ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فلما تقاربا وتقابلا الفريقان، حتى يرى كل فريق منهم الفريق الآخر، قالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾. وكلمة ﴿ تَرَٰٓءَا ﴾ تفيد المعاينة الواضحة لكل فريق من الفريق الآخر، إلى درجة التساوي والتفاعل في المشاهدة، وتحقق كمال الرؤية من كلا الفريقين. كما أفادت ﴿ فَلَمَّا ﴾ التعقيب الذي خلا من الفاصل الزمني الطويل، فمجرد أن تواجه الجمعان، وعاين كل فريق الفريق الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فمجرد الترائي للفريقين قال بنوا إسرائيل ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي: إن فرعون ممسك بنا فمهلكنا، بما يدل على القرب الذي يمتنع به احتمال عدم الإمساك بهم، وإهلاكهم فدلالة ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ تفيد الجزم بوصوله إليهم، الأمر الذي لا مفر منه.

وقد سمى الله تبارك وتعالى من كان مع موسى عليه الصلاة والسلام بالأصحاب ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ بما يفيد المصاحبة، والمتابعة، والمسايرة منهم لموسى عليه السلام. وهي تسمية كريمة لهم بهذا الوصف والرتبة. وهذا كشف لدرجة هلع وخوف بني إسرائيل من الموقف، إلى درجة المبالغة في قدرة تمكن فرعون منهم، وأنه لا مفر منه في حسبانهم البشري، ولكن الأمر مختلف في تدبير الله تعالى، وقدرته عَزَّ في علاه.

وهنا يقول لهم موسى، كليم الله ورسوله عليه الصلاة والسلام رادعاً لظنهم، ومزيلاً لخوفهم وهلعهم ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ قال موسى عليه السلام ﴿ كَلَّآ ﴾ ليس الأمر كما تظنون، معللا لهم مَنَعَتَهُم من حصول ما يخافون منه ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ فإن الله تعالى معي بقدرته وعلمه، وسوف يهديني إلى المخرج، والوقاية من فرعون وجنوده. ومؤكداً ذلك بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ليليه التعليل العظيم ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ فبادرهم باستصحاب معية الله تعالى ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ فإن تأييد الله تعالى،

ونصرته مصاحبة لي فيما أرسلني وهداني إليه، فهو الذي ﴿سَيَهۡدِينِ ﴾ فإن ربي الذي هو ناصرني سيرشدني إلى ما سأقوم به، بهدايته وتوفيقه. مما يدل على قوة ثقة موسى عليه الصلاة والسلام في ربه تبارك وتعالى في ذلك الموقف العصيب. كما يفيد هذا أهمية استحضار معية الله تعالى ونصرته، لأنها تملأ القلب سكوناً، وتمنح الذهن تفكراً وهداية، فإنه سبحانه وتعالى هو الناصر. كما يفيد ذلك أهمية التعليم والتذكير من القائد إلى من معه. وأن يذكرهم بالله تعالى، بما يجعلهم يتوجهون إليه بما يريدون من النجاة والخير.

وهنا تظهر معية الله تعالى ونصره لموسى ومن معه، إذ باشره الله تعالى بتوجيهه إلى ما يصنع لتتحقق نجاتهم، وإهلاك عدوهم ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ فقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام مباشرة ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ بأن يأخذ بالأسباب المؤدية إلى النجاة ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ فأمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه دون أن يبين له ما سيحدث. ففعل موسى ما أمره ربه به عَزَّ وجل دون تفكير، ودون تردد، امتثالاً لأمره تبارك وتعال، ولم يقل: ولماذا أضربه بالعصا؟ وماذا ستصنع العصا بالبحر؟ فضرب موسى البحر بعصاه، فكانت النتيجة أن انفلق وانشق البحر ﴿فَٱنفَلَقَ ﴾ أي: فانفطر وانشق البحر، وأصبح طرفين للبحر، عن اليمين وعن الشمال ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ فأصبحت كل جهة أو طرف من البحر ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أي: كالجبل الضخم الشامخ الكبير. ليكون ذلك آية عظيمة، لأصحاب موسى، ولفرعون وقومه، ولمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة. ولكن فرعون لم يتعظ بما رأى، بل دخل بين الطودين مطارداً ومتعقباً لرسول الله موسى وأصحابه، ليقضي الله تعالى فيه وبمن معه حكمه عليهم. ومن فوائد ذلك: أهمية الأخذ بالأسباب، وأنها من سنة الله تعالى، فقد أمر الله تعالى موسى أن يضرب بعصاه البحر، وماذا تصنع العصا بالبحر، ولكن ليعلم المؤمن أن الأخذ بالأسباب سنة من سنن الله تعالى في تدبيره. وأن على الإنسان أن يسعى ويأخذ بأسباب ما يريد تحصيله أو ما يريد دفعه، مستعيناً بالله تعالى، ومتوكلاً عليه. وأن الله تعالى قد يجعل من السبب السهل البسيط نتيجة عظيمة، لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فهو المدبر لهذا الكون من كل وجه وجهة وناحية.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من شأن هذا الأمر العظيم من الإنجاء والإغراق ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ وقربنا فرعون ومن معه في ذلك المكان ليحصل الغرق. قال قتادة رحمه الله تعالى: هم قوم فرعون، قَرَّبَهُم اللهُ

حتى أغرقهم في البحر[1] فكلمة ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ بمعنى: التقريب، أي: قربنا ﴿ ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ ﴾ أي: فرعون وقومه، قدمناهم إلى البحر، ودفعناهم إلى الهلاك. ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ فنجَّا اللهُ تعالى موسى عليه السلام وأصحابه من الغرق ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴾ الذين هم فرعون ومن معه، بأن أطبق الله تعالى عليهم الطود العظيم من مياه البحر، فأُهلِكُوا بالغرق.

ثم يخبر الله تعالى بما في هذا الإنجاء، وهذا الإغراق، وهذا الانشقاق البحري من الدلائل المبرهنة على عظمته وقدرته وألوهيته وربوبيته جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن في قصة هذه المتابعة من فرعون لموسى، والتقاء الفريقين ملتقى رؤيا العين، ثم يضرب موسى البحر بالعصا، فينشق، ليصبح كالجبلين العظيمين، ثم ينجي الله تعالى موسى وأصحابه، ويغرق فرعون وأعوانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ لعلامة وحجة وبرهان على مُلك الله تعالى، وقدرته العظيمة، وأن كل شيء هو بتدبيره عَزَّ في علاه، وبما يثبت ويبين ويؤكد أنه الله تعالى هو رب الكون ومالكه، وأنه المعبود الحق عَزَّ وجل، ولا إله إلا هو سبحانه وتعالى. مما يجب طاعته وفق ما أمر. ومع كل تلك الآيات والبراهين، والدلائل العظيمة فإن الأغلب من الناس لا يتعظ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فليس الأكثرية هم المؤمنون، بل أكثر الناس على غير الإيمان بالرغم مما يرونه من مشاهد قدرته وعزته سبحانه وتعالى. وفي هذا تقرير لما في سابق علمه عَزَّ وجل من أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين. وفي هذا البيان آية عظيمة، لأنه بالفعل؛ واقع أكثر الناس على الكفر إلى أن تقوم الساعة.

ثم يختم الله تبارك وتعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون بذكر عزته وعلوه جَلَّ شأنه وجلاله، وعظيم رحمته التي وسعت كل شيء، مخاطباً بذلك رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فإن ربك يا محمد عزيز في انتقامه من الكفرة، ورحيم بعباده المؤمنين، إذ يلطف بهم، وينصرهم، ويمكن لهم في الأرض. وفي هذا موعظة وترغيب وترهيب لمشركي قريش، ولغيرهم إلى أن تقوم الساعة. وبهذا فقد ختم الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع قومه بما جاء في صدر هذه السورة الكريمة عند ذكره سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه الذين كفروا به. وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وكذلك قوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وختم بهما

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٦/١٧)

أيضاً بقية قصص الأنبياء الأخرى التي وردت في هذه السورة المباركة، لما فيها من لفت الانتباه إلى أن أكثر الناس لا يتعظ بمواعظ الله سبحانه وتعالى، العزيز في انتقامه لمن كفر، والرحيم بمن أطاع. وأنه عَزَّ وجل متصف بالعزة والرحمة.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى جانب من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وبالرغم من تعدد ورود قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم، إلا أنها تحكي جوانب مختلفة من سيرته. وفي هذه السورة تتناول ما دار بينه وبين قومه من حوارات. ولعل في ورودها بعد قصة موسى بسبب قوة الشبه الذي بين قوم إبراهيم وبين قومه عليهم الصلاة والسلام، بعبادتهم للأصنام، وكذلك لتفاخرهم بأنهم من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وليكتشفوا أن الذي جاء به رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى مماثل لما جاء به إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ربه عَزَّ وجل.

فيخاطب الله تبارك وتعالى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ واقرأ أيها الرسول على قومك خبر رسولنا إبراهيم. فاذكر لهم حين سأل والده وقومه عن معبودهم الذي يتوجهون له بالعبادة ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فسؤال إبراهيم عليه السلام ليس عن جهل بما كان يعبد قومه، ولكن هو سؤال يتدرج به معهم إلى أن يستكشفوا جهلهم وخطأهم، وقصور تفكيرهم بأنفسهم، وأنهم حادوا عن الحق، وعن الطريق المستقيم. فخاطب أبيه وقومه بهذا السؤال. وأُفرد أبيه بالذكر من بين قومه، لبيان أهمية الحرص على الوالدين، مما يفيد أن للابن أن ينصح والديه إذا رأى أحدهما أو كلاهما على خطأ، وأن يكون ذلك بأدب

واحترام، من أجل وجوب مصاحبتها بمعروف كما قال تعالى في سورة لقمان ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

فأجاب قومه بالحقيقة التي كانوا عليها من العبادة ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ فقالوا في استعلاء وتباهي بما يعبدون: أننا ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ وليست صنماً واحداً، فأوردوها بصيغة الجمع، وفي إيرادها بصيغة الجمع ما يدل على تعددها وكثرتها. مما يبين عمق جهلهم. ثم أكدوا ذلك باستدامة عبادتها ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ أي: قائمين على عبادتها، بالملازمة والاستدامة، مما يفيد حرصهم عليها، وتباهيهم بها. وهنا يتوجه إليهم إبراهيم عليه السلام بسؤال يجعلهم يكتشفون به قصور عقولهم، وقصور وعجز آلهتهم ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ سؤال تقريري، يقرر به قصور تلك الأصنام عن التفاعل والتجاوب مع من يعبدها، بما يثبت أنها صماء، لا تنفع ولا تضر، وأنها فاقدة لما تتجاوب وتتفاعل به مع من يتقرب إليها ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ فهل حين تدعونها، وتطلبون منها مطالبكم من الخير ودفع الشر والضر تسمعكم؟ لتلبي ما تطلبونه منها. سؤال يُوصِل الْمُخَاطَب إلى معرفة الخطأ والحقيقة بنفسه. مما يفيد أهمية الحوار والمناقشة، وأهمية تقرير الحقيقة من واقعها. ثم يعطف على السؤال سؤالاً آخر ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ فهل يقدمون لكم نفعاً حين تدعونها، أو يعاقبونكم حين تقصيركم في عبادتها. فإنها أسئلة تردهم إلى الحقيقة، التي تبين خطأهم، وقصور فكرهم، وجهلهم بتقليد غيرهم من آبائهم من غير علم ولا هدى.

فأجابوا على أسئلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما يفيد نفي النفع والضر، وتقريرهم وموافقتهم لما قرره لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام لهم، وجعلوا علة عبادتهم لها هو تقليدهم الآباء ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فلما كُبِتُوا بتلك الحقائق التقريرية، والتي لم يجدوا لها جواباً، عمِدُوا إلى الارتكاز في علة عبادتهم لها بأنه تقليد للآباء ومجاراتهم فيما كان منهم. فذهبوا إلى علة التوارث من غير علم، ومن غير تفكير. وفي هذا الجواب ما يفيد أنهم ينفون عن أصنامهم السمع والنطق والإدراك، وينفون جلب النفع، وينفون أن يكون منها الضر لمن قَصَّر في عبادتها، فهي ممتنعة عن العقاب، لعدم قدرتها، فإنها أصنام فاقدة للقدرة.

فبعد أن قررهم بخطأ ما هم عليه من عبادة الأصنام بأسلوب التقرير، يبين لهم براءته من معبوداتهم، ومبيناً المعبود الحق الذي يعبده إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أفرأيتم وشاهدتم الأصنام التي تعبدونها ومن كان قبلكم ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ فإن الأصنام التي تعبدونها أنتم وآباؤكم السابقون، المتقدمون عليكم ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن هذه الأصنام عدو، فإنني أتجنبها، وأعاديها، وأُحاربها، فإن مَن يعبدها فإنما يعبد عدوه الذي يمنع عنه دخول الجنة، ويمنع عنه مرضات الله تعالى، ويمنع عنه طاعة رب العالمين. فرؤيتي لها أنها العدو الذي يجب عليَّ محاربته، لأنها معبودات باطلة، تصد الناس عن عباد رب العالمين، الذي لا يستحق العبادة إلا هو سبحانه وتعالى. فليس المعبود الحق إلا رب العالمين، فكل معبود عدو لي ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فرب العالمين هو المنفرد بالربوبية والألوهية، المستحق للعبادة المتضمنة للرجاء والخوف. وبالتالي أنصحكم أن تتركوا العدو الذي يمنع عنكم ما أنتم قادمون عليه من الخير وجنات النعيم. وبالتالي يكون نصحه لهم بما هو قائم عليه من عبادة رب العالمين.

وقرر لهم بدلالة ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاستثناء الوحيد، بأن الله سبحانه وتعالى هو رب جميع ما خلق من إنس وجن، وجماد، ومتحرك وثابت، وما نعلم وما لا نعلم. فهي دلالة شاملة لكل ما خلق سبحانه وتعالى، وبالتالي هو رب كل شيء، وهو مالكه، والمتصرف فيه، بما يقرر لهم به أن الله عَزَّ وجل هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

فبعد أن أبطل إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه أصنامهم، بما هي عليه من العجز عن جلب النفع ودفع الضر، وأنها عدو له، فإنه ينتقل بهم إلى بيان معبوده الذي يعبده، وهو رب العالمين. فأخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعدد لهم صفات الله تعالى المتمثلة في العلاقة بينه وبين ربه عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فيقرر لقومه ويشرح لهم حقيقة رب العالمين الذي يعبده، فإنه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فهو الذي أوجدني، وبالتالي هو الذي يوفقني ويرشدني إلى الحق. بينما تلك الأصنام لم تخلق أحداً، وبالتالي يعيدهم إلى حقيقة الخلق والإيجاد، فكما هو متقرر أن الأصنام لا تخلق شيئاً، وبالتالي هناك خالق خلق هذا الكون، ومن ذلك الخلق المتنوع خَلقُهُ لهذا الإنسان. وبالتالي فإن الذي خلق هذا الإنسان هو الذي يهديه، بما يجعله على الطريق المستقيم. فيهديه بوسائل الهداية والتي منها إرسال الْمُرسَلِين من الرُّسُل.

ثم يقرر لهم مصدر الرزق، ومصدر العافية، بأنها منه سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ فَرَبُّ العالمين الذي هو خالق الكون هو الذي يمدني بالرزق، وبأسباب تحصيله، ويمدني بالسقاء

من الماء حين أريده. وفي تخصيص الطعام والسقاء من بين أنواع الرزق ما يلفت به انتباههم إلى مصادر الرزق، من الإنبات وإنزال المطر، وتنوع وتعدد المطاعم، فمن هذا الذي يهيئها؟ أهي الأصنام؟ فلا أحد يقول بذلك، وهي قاصرة عن ذلك؛ كما قررهم به من قبل. وبالتالي فإن الذي خلقني وخلقكم هو الذي يطعمني ويطعمكم، وهو الذي يسقيني ويسقيكم بما أنزل من الماء، فجعل الماء مهيأً للإنسان في الأرض.

ثم يذكر حاله حين يمرض ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وكذلك من فضله تبارك وتعالى أنه حين أمرض، يعافيني من المرض. وقد نسب إصابة المرض لنفسه ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ تأدباً مع الله تبارك وتعالى، وإن كان المرض والشفاء كله بقدر الله سبحانه وتعالى وقضائه. ونسب الشفاء له تبارك وتعالى ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ثم ينتقل بهم إلى الموت والبعث والنشور ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ فيقرر لهم أن رب العالمين الذي خلق هو الذي يُميت الإنسان، ثم يبعثه بعد الموت. فبعد أن قرر لهم الموت الذي يعرفه كل أحد من الناس، يقرر لهم البعث ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ فهناك حياة بعد الموت.

ثم يقرر لهم الحساب والجزاء على كل ما يكون من الإنسان، من خير وشر ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ والذي ﴿ أَطْمَعُ ﴾ أي: أرجو ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى ﴾ أي: يمحو عني ما اعترفت من لخطاياي ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ الذي هو يوم الحساب والجزاء. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: يعني: ما يجري على مثلي من الزلل[١] وفي ذلك من الفوائد: تقرير إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بشر، فيحصل منه الخطأ والتقصير، والذي يؤكد لهم به أنه إنسان مثلهم، وأنه يمرض مثل كل إنسان، وليس له خصوصية عن جنس الإنسان. وكذلك فيه من الفوائد أنه يقرر لهم الحساب والجزاء بعد الموت، وأن الله تعالى يغفر لمن تاب. فالطمع في المغفرة دليل على أن المغفرة من الله تعالى حاصلة لمن شاء أن يغفر له سبحانه وتعالى، وفيه عدم القنوط من رحمة الله تعالى لمن آمن وتاب إلى ربه عَزَّ وجل، واتبع هداه بالطاعة والامتثال. وفي هذا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم ينزه نفسه عن التقصير والخطأ. مما يعلم المؤمن ألا ينزه نفسه عن الخطأ والتقصير، وأن يكون له الرجاء في مغفرة الله تعالى. فقد أنهى بيانه عن ربه بما يناسب ما بدأ به، إذ بدأ بالخلق والإنشاء، وانتهى بالموت والفناء، ثم البعث والحساب والجزاء.

ومن جميل الترتيب البياني أن بدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتقرير عجز الآلهة، الذي تقرر به بطلانها، وبطلان عبادتها. ثم يتدرج بهم إلى الخالق العظيم الذي يعبده إبراهيم، وهو رب العالمين، ويبتدئ ببيان

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٤١)

وصفِهِ لربه تبارك وتعالى بالخلق والإنشاء والرزق والسقاء والشفاء، وأنهى بيانه بتقرير الموت الذي لا ينكره أحد من الناس، ثم يقرر البعث والحساب. لأن الطمع والرجاء في المغفرة دليل على الحساب والجزاء، وأن هذا الحساب هو ﴿ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ وجعل ما بين هاتين المرحلتين ما تقتضي الحياة من نعمة الطعام والشراب، والشفاء عند حصول الأمراض. فكان تسلسلاً غاية في الدقة التي لا تكون إلا من بليغ، فسبحان الله العظيم.

ثم ينهي إبراهيم عليه الصلاة والسلام خطابه وبيانه لقومه بالدعاء والطلب والرجاء من ربه تبارك وتعالى ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فيدعو إبراهيم عليه السلام ربه، متوسلاً إليه أن يعطيه العلم والفهم الواسع الكثير، عطاء من عنده. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو العلم[١] وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: يقول: واجعلني رسولاً إلى خلقك، حتى تلحقني بذلك بعداد من أرسلته من رسلك إلى خلقك[٢] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وقد كان إبراهيم حين دعا نبياً، فلذلك كان السؤال طلباً للازدياد، لأن مراتب الكمال لا حد لها، بأن يُعطَى الرسالة مع النبوة، أو يعطى شريعة مع الرسالة، أو سأل الدوام على ذلك[٣] فالحكم يعني النبوة والحكمة وما يتبعها من العلم والفهم. وكان طلبه بصيغة الهبة، والهبة تكون منحة من غير سعي في التحصيل، فأحكام الله تعالى وحدوده وشريعته تأتي من الله تعالى إليه هبة من العزيز الحكيم، باعتبار أنه رسول بالرسالة التي هي شريعة الله تعالى، وما فيها من الحدود والأحكام، وليس له فيها اجتهاد.

ثم سأل الصلاح ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: بالنبيين من قبلي، وفي درجتهم، ومنزلتهم، واجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والإلحاق بالصالحين: أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة[٤] مما يبين أهمية الدعاء، واهتمام الأنبياء به، ويستفاد كذلك أن يسأل الإنسان الخير من ربه، والدرجات العليا في الدنيا والآخرة.

ثم سأل ربه تبارك وتعالى أن يوفقه ويسدده، وأن يجعل له الذكر والسيرة الحسنة ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ واجعل لي يا ربي ذكراً حسناً، وثناء جميلاً باقياً بعد موتي، فيذكرني الناس بالفعال الحميدة. ومن جميل البيان أن ورد التعبير عن كلام الناس عنه بكلمة ﴿ لِسَانَ ﴾ لأن أقوال الناس إنما تكون

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥١/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٩٣/١٧)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٧٤/٨-٣٧٥)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٣١٨/٣)

بجارحة وآلة اللسان، الذي هو المعبر عن أحكامهم في غيرهم. وخصص وحصر هذا القول عنه بأن يكون صدقاً ﴿ لِسَانَ صِدۡقٍ ﴾ كلاماً محموداً صادقاً عني في كل شيء. وأما موقع هذا الكلام الحسن، والمدح والثناء فيكون ﴿ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ في جميع الأزمان القادمة من بعده إلى يوم الدين. فجملة ﴿ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ جملة مطلقة من حيث الزمن، ومن حيث الأقوام الآخرين، لتستوعب جميع الأزمان والأجيال. مما يدل على أهمية الذكر الحسن بعد الممات، فبه يكون الدعاء من الْخَلَفِ للسلف، وكذلك أثره على غيره في الاقتداء بسيرته، وحكمته، وصبره، وطاعته لربه عَزَّ وجل. وقد حقق الله تعالى له الذكر والثناء الحسن، حتى في صلاة كل مؤمن تجد أن ذكره مقرون برسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم، وذلك عند التشهد في كل صلاة. وكذلك الثناء عليه في القرآن الكريم.

ثم سأل الله تعالى ما يتمناه ويخصه في الآخرة ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ واجعلني يا الله من عبادك الذين تُورثهم جنة النعيم. ثم الدعاء لأبيه، قبل أن يُنهى عن ذلك ﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ واصفح لأبي عن شركه، ولا تعاقبه على ما كان منه ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فإنه ممن ضل عن الهدى، وطريق الحق. ثم توقف إبراهيم عليه السلام عن الدعاء لوالده بعد أن نهاه الله تعالى عن ذلك كما هو في سورة التوبة. حيث أوضح تبارك وتعالى سبب استغفار خليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه، ثم توقف عن ذلك ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ ﴾ فاستغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب الوعد الذي حصل منه لأبيه، فلما تبين له أن أباه باق على كفره، ومصر عليه، تبرأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أبيه، لأنه أصبح بكفره عدواً لله تعالى؛ فلا يستحق الاستغفار، حتى ولو كان هذا الاستغفار من ولده، الذي هو خليل الله تعالى ونبيه ورسوله. مما يفيد أن وعد إبراهيم لأبيه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله تعالى بإصراره على الكفر، فلما تبين الأمر واتضح له تبرأ منه، مما يدل على سرعة التجاوب والطاعة لله تعالى، فبمجرد علمه بحال أبيه من الكفر تبرأ منه. فجاء الثناء العظيم، والتزكية الرفيعة من الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ كما يفيد هذا عدم جواز الاستغفار لمن أشرك، ومات على شركه مهما كانت درجة القرابة.

ثم يطلب إبراهيم من الله سبحانه وتعالى أن يعافيه من الخزي والندامة يوم يبعث الله تعالى العالمين للحساب والجزاء ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴾ فيا ربي لا تجعلني ذليلاً ولا نادماً يوم القيامة، فأجرني وابعدني عن الخزي، بأن تسترني ولا تفضحني أمام الخلائق. مما يدل على قوة إيمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لأن الخوف من الله تعالى دليل على قوة الإيمان، بالرغم من أنه خليل الله تعالى ونبيه ورسوله إلا أنه يخاف من يوم

البعث والنشور، وما يكون من الحساب والجزاء. فإذا كان هذا الخوف من خليل الله ورسوله، فإن في ذلك ما يستوجب على المؤمن أن يسأل الله تعالى الستر في الدنيا والآخرة، وألا يفضحه يوم الدين.

ثم يصف ذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ فلا تجعلني من أهل الخزي ذلك اليوم الذي لا ينتفع فيه الإنسان بجاه ولا مال؛ مهما عظم وكثر، ولا ينفعه في ذلك اليوم الأبناء، مهما كثروا، ليدفعوا ويتحملوا عنه العذاب. مما يفيد انقطاع الفائدة من كل شيء كان له في الدنيا، من الأموال والأولاد وغيرهما.

فالذي ينفع هو من سَلِم قلبُه من الكفر ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فالذي ينفع ذلك اليوم هو سلامة القلب من الشك والشرك والنفاق، وهو قلب المؤمن، لأن القلب السليم من اطمأن بالله تعالى، وسار وفق سُنَّة الرسول المباركة المطهرة، صلى الله عليه وسلم. وقيل في معنى القلب السليم ما نقله ابن جرير رحمه الله تعالى: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وقيل: الذي لا شك فيه. وقيل: الذي ليس فيه شك في الحق. وقيل: السليم من الشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد[1] مما يفيد أن القلب السليم هو قلب المؤمن المطمئن بالله تعالى، المصدق بأركان الإيمان، العامل بأركان الإسلام.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى محاورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه عبدة الأصنام، ينتقل السياق الكريم إلى بيان عاقبة المؤمنين، ومصير الكافرين، فيقول تبارك وتعالى عن المؤمنين ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقُرِّبَت وأُدنِيت الجنة من المتقين فينظرونها ليدخلوا إليها، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: قُرِّبَ دخولهم إياها، ونظرهم إليها[2] وفي هذا التقريب ما يدل على الحفاوة بالمتقين الذين يخافون الله تعالى، ويرجون رحمته،

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٩٦/١٧)

(2) الشوكاني، فتح القدير (١٠٦/٤)

فيبتعدون عن المعصية، ويسارعون للطاعة والامتثال، وإذا اعترفوا ذنباً سارعوا للتوبة والمغفرة. فإن الله تعالى رحيم وكريم، وأن الله يُكرم من أطاعه.

ثم يخبر تبارك وتعالى بجزاء الكافرين ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ وأُظهِرت جهنم للغاوين، أي: الكافرين، وسماهم الله تعالى بما كانوا عليه من الغواية ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ وهي الضلالة عن الهدى، ثم يُوَجَّه إليهم سؤالاً ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ فيُقَال لهم توبيخاً: أين ما كنتم تعبدون من الأصنام وغيرها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها من غير الله تعالى. فهل يستطيعون نصركم اليوم، فيدفعون العذاب عنكم، أو تستطيع تلك المعبودات أن تدفع العذاب عن نفسها. وهو سؤال تقريع وتوبيخ، وتهكم بما كانوا عليه من العناد بالكفر. ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فَطُرِحَ الكفار في النار قذفاً فيها، هم والغاوون، أي: الشياطين. قال قتادة رحمه الله تعالى: الغاوون هم الشياطين[1] والكبكبة تفيد التساقط في النار بعضهم على بعض، بصورة متردية، جزاء وفاقا. ومن دقائق البيان هو تكرار الكب فيها، بما يفيد بيان صورة وحالة هيئة السقوط فيها ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أي: معهم في الكبكبة أتباع إبليس من الجن والإنس، الذين يطيعونه، ويعملون بما يأمرهم به. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنهم: أتباعه من الجن والإنس[2] مما يفيد التحذير من طاعة وغواية الشياطين، فيصبح الإنسان جندياً من جنوده.

ثم يذكر تبارك وتعالى حوارهم فيما بينهم، والذي دار حين أُدخِلُوا جهنم ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾

فقد ذكر تبارك وتعالى حوارهم بصورة الماضي ﴿ قَالُواْ ﴾ وكأنه وقع وانتهى، بما يفيد تأكيد وقوعه، وبما يفيد نقل الْمُخَاطَب إلى ذلك الواقع وكأنه يراه أمامه. فقال هؤلاء الغاوون، والأنداد التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، ومعهم جنود إبليس، وهم في خصام وتنازع فيما بينهم ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فيحلفون بالله تعالى أنهم كانوا في دنياهم في ضلال ظاهر واضح، أي: في خسارة وتبار، وحياد عن الحق، مؤكدين ضلالهم بالقسم ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ وبحرف التأكيد ﴿إِن ﴾ وبتأكيد ثالث، وهو صفة الضلال بأنه ﴿مُّبِينٍ ﴾ واضح جلي ذلك الضلال الذي كانوا فيه. فهو اعتراف منهم بحقيقة ما كانوا عليه من الضلال، حتى تمكن الضلال منهم أشد تمكين.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٩٨/١٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٣/٦)

ثم يعللون ذلك الضلال بمخاطبتهم لما كانوا يعبدون، قائلين ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ عندما كنا نساويكم ونعدلكم بالله رب العالمين في العبادة، وهذا قول الغاوين للذين كانوا يعبدونهم من الأوثان. وهنا يقررون بأن الله تعالى هو رب العالمين، لا شريك له، وأن كل شيء مُلكه. ثم يعللون أسباب ضلالهم ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فإن الذي أضلنا بالغواية عن الحق ليس غير المجرمين، ويعنون بذلك إبليس، ومن كانوا لهم قدوة وأسوة من آبائهم وأسلافهم وجميع من اقتدوا بهم، فحصروا أسباب الغواية عن الحق في مَنْ أسموهم بالمجرمين، وحقاً أنهم كانوا متلبسين بالإجرام. في حين أنهم لم يكونوا يسمونهم في الدنيا بذلك، بل كانوا لهم منقادين، ومتابعين وطائعين. وعندما جاءهم الحق المبين في الدنيا كانوا فيه من الزاهدين، بل المبغضين والمحاربين له. وفي هذا العرض والبيان من الله تعالى لأحداث ومجريات ما سيكون قبل أن يكون موعظة وإنذار. بل ومن قوة البيان وأثره وتأثيره أن ساق الله تعالى البيان بصورة الماضي الذي يفيد التحقق، والذي يثير تفاعل الْمُخَاطَبين وكأنهم ينظرون إلى أحداثه، ليكون أكثر تفاعلاً وأثراً في النفوس.

ثم يخبر الله تعالى عن شدة الندم، وما أعقبه من الحسرة ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ فليس لنا عند الله تعالى من يشفع لنا، فيخرجنا من هذا العذاب الأليم، وقد ورد البيان بأسلوب القطع والجزم بأنه ليس لهم شفيع، فقد أفاد حرف ﴿ مِن ﴾ نفي الإمكانية، بما يفيد اشتعال قوة الحسرة والندامة في نفوسهم وقلوبهم. فلا تشفع لهم الملائكة ولا الأنبياء ولا المؤمنون، بينما يكون ذلك بين المؤمنين ممن عليه شيء من العذاب. فإن لهم من الله تعالى قبول الشفاعة بإذنه عَزَّ وجل. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: هذا قولهم إذا شفع الأنبياء والملائكة والمؤمنون[1]

ثم يتذكرون صداقة وأصدقاء الدنيا ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ وليس لنا في هذا اليوم صديق مشفق، يهتم بنا، فيشفع لنا. وخُص الصديق الحميم لأنه الأقرب ولأخص في التواد والقرب من عموم الصديق. فليس لنا حتى الصديق الحميم الذي يفدي صديقه بكل ثمين، فإنه مفقود كما هو حال الشفيع المفقود. وتُعَبِّر دلالة الحميم عن قوة العلاقة والصداقة والمودة، فمع قوتها إلى هذه الدرجة، فقد انتفت وكأنها لم تكن صداقة وصلت إلى ذلك الحد مع من كانوا يصادقونهم. ويقصدون بهم ممن كانوا يعدونهم شفعاء وأصدقاء من المعبودات، وممن كان يسير معهم فيما كانوا فيه من الضلال من الجن والإنس. وقد أُفْرِد الصديق، بينما جُمِع الشافعين. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: فإن قلت لم جُمِع الشافع، ووحِّد الصديق؟ قلت لكثرة الشفعاء في العادة، وقلة الصديق[2] وهذا من

(١) المرجع السابق (٦/٤٣)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٣/٣٢٠)

دقائق البيان وعمق مقاصد ألفاظه حتى عند الإفراد والجمع. وتوضح هذه الندامة وتبين أن ليس للإنسان إلا ما سعى واكتسب. وأن المجرمين لا شافع لهم، ولا صديق يدافع أو يتحمل عنهم ما هم فيه من العذاب. اللهم أجرنا من الخزي ومن النار برحمتك وفضلك يا رب العالمين.

ثم تزداد الحسرة بتمني العودة إلى الدنيا، ليستقيموا فيها بالطاعة الله تعالى ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فلو أن لنا رجعة للدنيا فنكون من المؤمنين، بما يفيد نحقق الإيمان، وننتهي عن الشرك، ونوحد الله تعالى، ونحقق أركان الإيمان والطاعة لله عَزَّ وجل بما شرع وأمر. فإنها أمنية بعد أن فات تحققها، فهو عذاب الحسرة والندامة، مع عذاب الجسد والخزي وشدائد الألم من كل وجه. ليفيد التحذير من المصير المكشوف الذي لا غموض فيه. وفي هذا تحذير من الشرك، من خلال بيان حال أهله يوم القيامة قبل أن يكون. وهذا من فضل الله تعالى على الناس، بأن أوضح وبين لهم ما سيكون وما هم قادمون عليه قبل أن يكون، بما يفيد الترهيب والتحذير والإنذار. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يحذرهم من الضلال وعاقبته. فالحمد له سبحانه وتعالى.

ثم يختم الله تعالى قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع قومه بما ختم به ما جاء في صدر هذه السورة الكريمة عند ذكره سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه الذين كفروا به، وكذلك بما ختم به قصة موسى عليه الصلاة والسلام. فيخبر الله تعالى بما يجب على الإنسان بعد أن عَرَّفَهُ بما سيكون عليه حال ومآل من كفر به سبحانه وتعالى بأي نوع من أنواع الكفر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إن فيما بيناه من البيان والإيضاح لحجة واضحة للناس، ومع ذلك فإن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، فأفادت دلالة الآية: أنه كذلك أكثر الناس هم على الكفر. بما يفيد قلة المؤمنين بالنسبة لعدد الكافرين. وهذا بيان إعجاز لواقع الحال في كل زمان. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإن ربك أيها الرسول هو العزيز الذي يقهر ويُذل من عصاه، ويخزيهم. وهو الرحيم بأوليائه المؤمنين، وهو الرَّحِيمُ بالناس بما بينه ووعظهم وحذرهم منه، وتأخير وتأجيل عقوبتهم، وقبول توبة التائبين.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
١١٠ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ

يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن
مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى عرض قصة نوح عليه السلام مع قومه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فقد كفر قوم نوح برسولهم، فلم يصدقوه. فبدأ البيان بالمحصلة والنتيجة من خبرهم، وهي كفرهم برسولهم، والذي يتبعه كفرهم بالشريعة التي جاءهم بها. وأنهم بتكذيبهم رسولهم نوح عليه السلام، فإنهم يُعتبرون أنهم قد كذبوا بجميع المرسلين، بما يفيد أنهم لا يؤمنون بالمرسلين من الله تعالى. حيث ورد التكذيب بصيغة الجمع، أي بجميع المرسلين ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ولم يأتهم إلا رسول واحد، وذلك لاتحاد واتفاق دعوة المرسلين في أصول رسالتهم، وفي أهدافها وغايتها، فمن كذب بواحد منهم فقد كذب بالجميع، ولأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وبالتالي لا يؤمنون بالحساب والجزاء، ولا بالحاجة إلى المرسلين بزعمهم. كذلك تشمل دلالة ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أن مُكثَه بينهم كان طويلاً، فتعاقبت الأجيال، فكأن حالهم حال من تعاقبت فيهم المرسلين برسول واحد. أي: في منزلة من تعاقبت فيهم الرسل.

وقد نسبهم الله تعالى إلى نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ لبيان أنه منهم، ويعرفونه حق المعرفة منذ طفولته، بما يؤكد أنه ليس نكرة عليهم، بل يعرفون صدقه وأمانته، وجميع صفاته الحميدة التي تُوثّق صدقه، ويُستبعد بها بُعْدَهُ عن كل سوء. ثم أكد تبارك وتعالى مكانته منهم، بصفة الأخوة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فيوجه لهم أخوهم نوح عليه السلام سؤال استنكار من عدم قبولهم الحق الواضح المبين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون الله تعالى وترجونه، فتتركون عبادة الأصنام، وتفردون ربكم سبحانه وتعالى بالعبادة الخالصة، وتستجيبون لرسوله الذي هو بمنزلة الأخ لكم. إذ هو حريص على سعادتكم ونجاتكم يوم البعث والنشور. وفي هذا الاستنكار ما يفيد أن قوله هذا لهم بعد أن كذبوه، فيستحثهم بلزوم الخوف من الله تعالى، التي معقلها ومرتكزها التقوى.

ثم يؤكد لهم أمانته وصدقه وحرصه بما يعرفونه عنه من الأمانة والصدق ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فإني لكم رسول من الله تعالى فيما أبلغكم به، وإنني أمين على ما أبلغكم به، بما ينفي كل نوع وقدر من الافتراء في رسالته إليهم. ثم يكرر عليهم مناشدته لهم بتقوى الله عَزَّ وجل، الموجبة للطاعة والاتباع ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فخافوا عقاب الله عَزَّ وجل، وأطيعون فيما أدعوكم إليه، وأبينه لكم مما أُرسلت به إليكم. وفي هذا تأكيد للتقوى. بما يبين أهميتها، وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة.

ثم يتدرج معهم في الخطاب، الذي يزيل به الموانع التي قد يظنونها ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلست اسألكم على ما أدعوكم إليه ثمناً، ولا نفعاً، بما يفيد ليس لي طمع في المال ولا غيره، ولا أريد أن استعلي عليكم بكثرة المال، بل نفى ذلك بأي نوع من الأجر. فجملة ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تفيد استقصاء أي نوع من الأجر والنفع، كما تفيد ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ نفي المطالبة لهم، ثم يؤكد أن مصدر الأجر الذي يرجوه هو من الله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالأجر الذي أرجوه هو من رب العالمين. بما يبين لهم أن الله تعالى هو رب كل شيء، وأن الأرزاق منه وحده لا شريك له. فهو الذي يرزقكم ويرزقني، ويرزق جميع عباده. ثم يكرر عليهم أن يتقوا الله تعالى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فخافوا الله تعالى وأطيعوا أمري فيما أبلغكم به عن ربكم تبارك وتعالى. وفي تكرار الأمر لهم بالتقوى ثلاث مرات ما يدل على أنها منبع الخير والامتثال والطاعة، وأهمية استحضارها للمؤمن في جميع تصرفاته وأحواله.

فيردون عليه بما يفيد أنه قد تابع نوح عليه السلام غيرهم من ضعفاء القوم ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ فرد هؤلاء المعاندون على رسولهم بتكبرهم أن يماثلوا من آمن ممن هم أقل مالاً وحالاً منهم. فقد استرذل واستضعف هؤلاء من تابع نوح عليه السلام، لقلة ما لديهم من مال، ووجاهة. وهو سؤال استنكار، كيف يكون لنا أن نتابعك، ونحن أشراف القوم وعليتهم، وقد تابعك الأراذل من الناس بحسب مقاييسهم الفاسدة. فجعلوا هذا مُوجِبُ لتكذيبهم له عليه الصلاة والسلام، وعدم تصديق نبوته، فموجب تكذيبنا لك وعدم اتباعك أنه لم يقتد بك ويؤمن لك إلا الأراذل من قومنا، أي: الذين هم سفلة القوم حسب مقاييسهم الجائرة الظالمة، ولم يتبعك الكبراء والسادة والأعيان من الملأ.

وهنا ظهر التصنيف البشري، والتقييم للآخرين من خلال المواصفات التي يثمنون بها بعضهم بعضا، وهي مؤهلات الوجاهة في المال، والصنعة، ونحو ذلك مما يتفاخر ويتطاول الناس به على بعضهم البعض. فأظهروا تطاولهم على غيرهم، بما يفيد ويكشف منهجهم السقيم، الذي أودى بهم إلى تكبرهم على من هم دونهم في المال والصنعة والوجاهة، حيث حصروا الرفعة في ذواتهم، وجردوا غيرهم من ذلك، حتى ولو كانوا أفضل منهم رأياً وعقلاً وفكراً، فاسترذلوا من آمن من الفقراء والضعفاء، بسبب استصغارهم لصنائعهم ومهنهم.

فيرد عليهم نوح عليه السلام بما قاله الله تعالى عنه ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فلست مكلف بأن أعلم ما كانوا عليه من العمل، حتى أقبلهم أو لا أقبلهم. وبما يفيد لست مكلف بمهن الناس وفقرهم وأحوالهم، ولا بما كانوا عليه من الكفر، ولا السلوك والأخلاق، وإنما الذي يهمني في دعوتي للناس أن يقبلوها، ويسيروا وفق منهجها الذي أمر الله تعالى به، فليست دعوتي مبنية على الانتقاء للكبراء والسادة، بل هو دين الله تعالى، لكل أحد من الناس.

ثم يبين لهم أن الرقيب والحسيب عليهم هو ربهم تبارك وتعالى ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ فقصر حسابهم والتنقيب والتفتيش عن أحوالهم وأعمالهم ومهنهم ونفوسهم وضمائرهم على الله تبارك وتعالى، فإنما ذلك من خصائص ربي جَلَّ جلاله، ولست مكلفاً بالسرائر. ثم يُعيدهم إلى أنفسهم في حكمهم الفاسد ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ لو كنتم تشعرون بهذه الحقيقة لما قلتم هذا الكلام، لأنه لا يمكن لأحد أن يعلم حقائق الناس. وفي هذا بيان لجهلهم بالحقائق، وإبطال فهمهم القاصر، وغرورهم الذي يمنعهم عن الحق، ليؤكد لهم بذلك بطلان ما يعتقدون ويرجون من طرد أولئك.

ثم يقرر لهم بقراره في حق من يزدرونهم ويستنقصونهم ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلست بطارد الذين قبلوا دعوتي، مهما كان ازدراؤكم، ومهما كانت حالتهم، ثم يبين ويوضح لهم مهمته التي كلفه الله تعالى بها ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فما أنا إلا مبلغ ومنذر واضح فيما أُنْذركم به، فإنذاري لكم واضح لا لبس فيه. فَمَن قَبِل مني أطاع ربه، ومن لم يقبل فإن عقابه على الله تعالى. بما يؤكد لهم أن القبول والرفض، والاختيار ليس له حق فيه. وبما يفيد اقطعوا الأمل من طردهم. واقبلوا الحق خير لكم. ومن دقة الوصف أن سَمَّى لهم أتباعه بالمؤمنين، بما يضاد تسميتهم لهم بالأرذلين، فكانت التسمية على عكس تسميتهم، وفي هذا تزكية ومدح وثناء لمن آمن. وأن قيمة الإنسان بإيمانه ودينه، وليس بماله ومهنته.

ثم يخبر الله تعالى بردهم على رسولهم ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ فلما عجزوا عن المقارعة انتقلوا إلى التهديد والتجبر ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾ إذا لم تتوقف عما تدعونا إليه، من ترك الآلهة، وأن نعبد ما تدعونا إليه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أي: لنرجمك بالحجارة، حتى تكون من عداد المرجومين الذين انتهت حياتهم بالرجم. وهنا يرفع نوح عليه السلام الأمر إلى ربه تبارك وتعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ فإن الأمر مع قومي قد انتهى إلى تكذيبهم بي، مع إصرارهم على ذلك، وتهديدهم

ووعيدهم بقتلي ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فاحكم بيني وبينهم حكماً، لأن الفتح بمعنى الحكم. ثم طلب من ربه تبارك وتعالى النجاة ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ونجني ومن معي من المؤمنين مما تصيبهم به من العذاب. فلمعرفته بما سيكون أمرهم وشأنهم من العذاب، سأل الله تعالى النجاة له ولمن معه من المؤمنين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما كان منه عَزَّ وجل من إنجاء نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين. وإغراق المكذبين ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ فأنجينا نوح ومن معه في السفينة المشحونة، أي: المكتظة بما امتلأت به من المؤمنين، والدواب والمتاع ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ ثم بعد إنجاء نوح ومن معه في الفلك المشحون تم إغراق الباقين من قومه، وهم الذين كذبوه، وهددوه بالرجم. ثم يختم الله تعالى قصة نوح بما ختم به ما جاء في صدر هذه السورة الكريمة عند ذكره سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه الذين كفروا به، وكذلك بما ختم به قصة موسى وقصة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ إن فيما بيناه سابقاً من شأن نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه لحجة واضحة لهم وللناس، ومع ذلك فإن أكثرهم ليسوا بمؤمنين، كما أفادت دلالة الآية كذلك: أن أكثر الناس هم على الكفر. بما يعطي دلالة قلة عدد المسلمين بالنسبة للكافرين. وهذا بيان إعجاز لواقع الحال في كل زمان. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك أيها الرسول هو العزيز الذي يقهر من عصاه، ويُذلهم ويخزيهم. وهو الرحيم بأوليائه، وهو الرحيم بالناس؛ بما بينه وحذرهم ووعظهم به من المواعظ، وتأخير عقوبتهم، وقبول توبة التائبين.

﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ
تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ١٣١ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ
هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ
أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى عرض قصة هود عليه السلام مع قومه، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام، أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف. وهي جبال الرمل، قريباً من حضرموت، متاخمة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح عليه السلام[١] فيقول تبارك وتعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: كفر قوم عاد برسولهم. فبدأ البيان بالمحصلة والنتيجة من خبرهم، وهي كفرهم برسولهم، فيتبع ذلك الكفر كفرهم بالشريعة التي جاءهم بها. وكفرهم كذلك بجميع المرسلين، حيث ورد التكذيب بصيغة الجمع للمرسلين ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ولم يأتهم إلا رسول واحد، وذلك لاتحاد واتفاق دعوة المرسلين في أصول رسالتهم، وفي أهدافها وغايتها، فمن كذب بواحد منهم فقد كذب بالجميع، وبما يفيد أنهم لا يؤمنون بالمرسلين من الله تعالى، لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وبالتالي لا يؤمنون بالحساب والجزاء، ولا بالحاجة إلى المرسلين.

ثم أكد تبارك وتعالى مكانته منهم، بصفة الأخوة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فيوجه لهم أخوهم هود عليه السلام سؤال استنكار من عدم قبولهم الحق الواضح المبين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون الله تعالى وترجونه، فتتركون عبادة الأصنام، وتفردون ربكم عَزَّ وجل بالعبادة الخالصة، وتستجيبون لرسوله الذي هو بمنزلة الأخ لكم. إذ هو حريص على نجاتكم يوم البعث والنشور. وفي استنكاره هذا ما يفيد أنه دعاهم فكذبوه، فاستحثهم بلزوم الخوف من الله تعالى، التي مركزها ومعقلها التقوى.

ثم يؤكد لهم أمانته وصدقه وحرصه بما يعرفونه عنه من الأمانة والصدق ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فإني لكم رسول من الله تعالى فيما أبلغكم به، وإنني أمين على ما أبلغكم به، بما ينفي كل نوع وقدر من الافتراء في رسالته إليهم. ثم يكرر عليهم مناشدته لهم بتقوى الله عَزَّ وجل، الموجبة للطاعة والاتباع ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا عقاب الله عَزَّ وجل، وأطيعون فيما أدعوكم إليه، وأبينه لكم مما أُرسلت به إليكم. وفي هذا تأكيد للتقوى. بما يبين أهميتها، وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة.

ثم يتدرج معهم في الخطاب الذي يزيل به الموانع التي قد يظنونها ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فلست اسألكم على ما أدعوكم إليه ثمناً، ولا نفعاً، بما يفيد ليس لي طمع في المال ولا غيره، ولا أريد أن استعلي عليكم بكثرة المال، بل نفى ذلك بأي نوع من أنواع الأجر، سواء كان مادياً

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٥٤)

أو معنوياً. فجملة ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تفيد أي نوع من أنواع الأجر والنفع، كما تفيد ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ نفي المطالبة لكم، ثم يؤكد أن مصدر الأجر الذي يرجوه هو من الله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالأجر الذي أرجوه هو من رب العالمين. بما يبين لهم أن الله تعالى هو رب كل شيء، وأن الأرزاق منه وحده لا شريك له. فهو الذي يرزقكم ويرزقني، ويرزق جميع عباده.

ويلاحظ أن الآيات السابقة من قصة هود تماثل الآيات من قصة نوح عليهما السلام، بما يفيد وحدة المنهج والأصل والغاية بين نموذجين من المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثم يوجه لهم سؤالاً يقررهم به أنهم على ضلالة حتى في تصرفاتهم مع غيره ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ أتبنون بكل مرتفع من الأرض وطريق للناس، تبنون بنياناً، للعبث واللعب. فالسؤال ﴿أَتَبْنُونَ﴾ يفيد الإنكار على كل بنيان يشيدونه، لوجود علة العبث ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بما يفيد أن التشييد من البناء هو بهدف العبث، ثم أوضح وبين مواقع تلك الأبنية، بأنها ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي بكل مرتفع من الأرض، كالجبال والهضاب، لأن الريع يعني المرتفع، ويعني الطريق بين المرتفعات العالية، ويدخل في معناها الفجاج التي تكون بين مرتفعات الجبال، وتم وصف هذه الأبنية بالآية ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي: العلامة، لأن الآية تعني العلامة والدلالة، مما يفيد ضخامتها، وقوة ظهورها وبروزها. ثم أنكر عليهم الهدف والغاية منها ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: أن بناءها وتشييدها بهدف العبث، ولمجرد اللعب واللهو، وإظهار القوة، وليست للحاجة والسكنى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أنهم كانوا غاية في قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله تعالى، فبعث الله تعالى هوداً إليهم، رجلاً منهم، رسولاً وبشيراً ونذيرا[1] مما يوضح كرم الله تعالى بما حباهم من الخير والفضل العظيم. ولكن ما حمدوا الله تعالى، وما أحسنوا في قبول الرسالة.

ويستمر رسول الله هود عليه السلام في طرح أسئلة الاستنكار على أفعالهم ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وأن مما يُعاب عليكم الإسراف، وذلك باتخاذكم المصانع التي هي القصور المشيدة الضخمة. وقد ذكر العلماء في معناها ثلاثة أقوال: أن القصور المشيدة. هي مآخذ للماء، وقيل: أنها بروج الحمام. وقيل بأنها مجرد قصور. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٥٤)

وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصوراً، وحصوناً مشيدة، وجائز أن يكون مآخذ للماء[١] ولا يمنع أن المقصود بها جميعاً، سواء كانت أمكنة للماء بجمعه وتخزينه، أو كانت أبنية مشيدة بالفخامة والقوة. وفي ربطها بالهدف والغاية ما يبين الانشغال والتلهي بها، ولكأنهم خالدين لا يموتون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي راجين بها الخلود، وكأنكم بهذه المصانع خالدون في هذه الدنيا، بما يبين أن تصرفهم مبني على فهم وغاية من الخطأ، بأنهم متناسون للموت، والرحيل من الدنيا. ويؤكده ويوضح نوع تصرفاتهم قوله تعالى عنهم ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ فصفتهم في التعامل تأخذ مأخذ التجبر والعنف والقوة، فإذا تعاملتم مع غيركم استخدمتم القوة والجبروت، كالسيف والسوط ونحوه، وبأسلوب الجبابرة، الذين قست قلوبهم، وهو الإفراط في إلحاق الأذى بالغير. مما يدل على القسوة، والتعالي، والتباهي في جميع أنواع تصرفاتهم، سواء في البطش أو البناء، مع اقترانها بسوء الأهداف والغاية. مما يبين أن كل عمل أصله مباح كالأبنية، فإنه إذا ارتبطت بفعل فاسد، أو نية فاسدة كانت مذمومة غير محمودة.

ثم بعد أن بين صفاتهم الذميمة، وأعمالهم المشينة يرشدهم نبيهم هود عليه الصلاة والسلام إلى التقوى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فخافوا الله تعالى وأطيعون فيما أبلغكم به عن ربكم تبارك وتعالى. وفي تكرار الأمر لهم بالتقوى ثلاث مرات ما يدل على أنها منبع الخير والامتثال والطاعة، ودليل على أهمية استحضارها للمؤمن في جميع تصرفاته وأحواله.

ثم يذكرهم بما أنعم الله تعالى به عليهم من الإنعام العظيم، مبتدئاً بتأكيد التقوى مرة أخرى، لبيان أنها مرتكز الطاعة والامتثال ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ وخافوا الله تعالى وراقبوه، وأطيعوا الذي أمدكم بما تعرفون من أنواع الخير والنعيم، وعظيم العطاء. وورد عطاء الله تعالى ورزقه بلفظ المد ﴿أَمَدَّكُم﴾ والتي تفيد التتابع والاستمرار، والتكرار، وعدم الانقطاع. ولكثرة النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم لم يذكرها بالتفنيد ابتداء، بل ذكرها لهم على سبيل الإجمال ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ فأنتم مدركون لها، وتعلمونها حق اليقين، ثم ذكر لهم أشملها، وهي أربعة: الأولى ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ والأنعام، هي من الإبل والبقر والغنم. والثانية: ﴿وَبَنِينَ﴾ أي: كثرة البنين، والثالثة: الجنات ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ والجنات هي: البساتين من المزارع، وما فيها من المحاصيل والفواكه والخضروات، وكذلك كثرة المياه. والرابعة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ وهي المياه التي تنبع من الأرض،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١٢/١٧)

ووردت بصيغة الجمع، للدلالة على كثرتها. فبعد أن ذكر لهم ما أنعم الله تعالى به عليهم من تنوع النِّعَم وكثرتها يوضح لهم عاقبة الكفر، وعدم الطاعة والامتثال لما جاءهم به من عند الله تعالى ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فالذي أخافه عليكم أن يُنَزِّل اللهُ عليكم عذاباً شديداً في أهواله وأحواله، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة. وقد بدأ بيانه بجملة ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ بما يفيد حرصه على إسلامهم وسلامتهم من كل مكروه، وأنه لا يريد لهم الوقوع في العذاب بتحصيل أسبابه، وأن كفرهم وعنادهم يُوجب عليهم العذاب. ووصفه لهم بأنه ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فليس بالعذاب الذي يمكن أن يتحمله الإنسان، بل عذاب متعاظم في قوته وشدته. بما يفيد التحذير لهم من هوله إذا وقع بهم. وهذا الحرص هو دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فأجابوه بقطع الأمل من قبولهم لدعوته ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ إن وعظتنا ودعوتنا، أو لم تعظنا وتدعونا فإن الأمر سواء. فساووا بين حرصه ووعظه لهم وبين عدم وعظه ودعوته لهم، فإن النتيجة واحدة، وهي عدم قبول ما تدعونا إليه. وفي ذلك تيئيس وتقنيط له من أن يجد منهم قبولاً واستجابة، فلا تحاول معنا أبداً. مما يدل على قوة العناد والإصرار على كفرهم. ثم عللوا عدم قبولهم من باب زيادة التأكيد ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فالذي نحن عليه هو دين الأولين ممن سبقونا، وبالتالي لن نحيد عنه. وتشمل كذلك دلالة أن الذي أتيتنا به هو أساطير ودين الأولين. ومعنى ﴿ خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: دين الأولين. والنص الكريم يستوعب الدلالتين، فهم يرون أن ما هم عليه هو دين من سبقهم. ويرون أن ما جاء به هود عليه السلام هو دين أساطير الأولين. وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: عن ابن مسعود والعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة ومجاهد يعنون: ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، كما قال المشركون من قريش في سورة الفرقان ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ وذكر كذلك بأنه حسب القراءة الأخرى: يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم، وسالكون وراءهم. نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[1] فيؤكدون لرسولهم أنه لا عذاب، وبالتالي لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء. وفي استيعاب الدلالة للآية الكريمة لهذين المعنيين ما يَظهر به قوة البلاغة البيانية للقرآن الكريم في استيعاب النص الكريم لمعنيين بنص واحد مبين. فسبحان من أظهر الإعجاز حتى في صياغة البيان.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٥٤-٣٥٥)

ثم يخبر الله تعالى بالنتيجة، وما حصل لهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فقد كذبوا نبي الله هود عليه الصلاة والسلام، المرسل إليهم من ربهم تبارك وتعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ولم يؤمنوا به ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ ﴾ فحق عليهم عذاب الله تعالى بالهلاك والدمار، فأهلكهم العزيز الحكيم بما يستحقون من العذاب، وهي الريح الصرصر.

ثم يذكر عَزَّ وجل وجوب الانتفاع بالآيات والحجج ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ففي إهلاك عاد عبرة وعظة لغيرهم، ممن هم بعدهم، ومع هذه العظة العظيمة فإن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فالكثرة من الناس في عزوف عن الإيمان بالرغم من هذه المواعظ والعبر التي نوردها عليهم. ثم يختم الله تعالى قصة عاد، قوم نبي الله هود عليه الصلاة والسلام بما ختم به ما ورد في صدر هذه السورة الكريمة عند ذكره سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه الذين كفروا به، وكذلك بما ختم به قصة موسى، وقصة إبراهيم، وقصة نوح عليهم السلام، ببيان عزته جَلَّ جلاله؛ في إهلاك المتجبرين، ورحمته بالمؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك أيها الرسول هو العزيز الذي يقهر من عصاه، ويُذلهم ويخزيهم. وهو الرحيم بأوليائه المؤمنين، وهو الرحيم بالناس بما بينه وحذرهم ووعظهم به، وتأخير عقوبتهم، وقبول توبة التائبين.

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا
هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ
ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ
فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى عرض قصة قوم ثمود مع رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام. وكانت منازلهم بحجر بين الشام والمدينة، في منطقة العلا. فيقول الله تبارك وتعالى عنهم ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فبدأ البيان بالمحصلة والنتيجة من خبرهم، وهي كفرهم برسولهم، فيتبع ذلك الكفر كفرهم بالشريعة التي جاءهم بها. وكفرهم كذلك بجميع المرسلين، حيث ورد التكذيب بصيغة الجمع للمرسلين ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ولم يأتهم إلا رسول واحد، وذلك لاتحاد واتفاق دعوة المرسلين في أصول رسالتهم، وفي أهدافها وغايتها، فمن كذب بواحد منهم فقد كذب بالجميع، وبما يفيد أنهم لا يؤمنون بالمرسلين من الله تعالى، لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وبالتالي لا يؤمنون بالحساب والجزاء، ولا بالحاجة إلى المرسلين.

ثم أكد تبارك وتعالى مكانة رسولهم منهم، بصفة الأخوة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فيوجه لهم أخوهم صالح عليه السلام سؤال استنكار من عدم قبولهم الحق الواضح المبين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون الله تعالى وترجونه، فتتركون عبادة الأصنام، وتُفردونه بالعبادة الخالصة، وتستجيبون لرسوله الذي هو بمنزلة الأخ لكم. إذ هو حريص على نجاتكم يوم البعث والنشور. وفي استنكاره هذا ما يفيد أنهم كذبوه، فيستحثهم بلزوم الخوف من الله تعالى، التي مركزها ومعقلها التقوى.

ثم يؤكد لهم أمانته وصدقه وحرصه بما يعرفونه عنه من الأمانة والصدق ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فإني لكم رسول من الله تعالى فيما أبلغكم به، وإنني أمين على ما أبلغكم به، بما ينفي كل نوع وقدر من الافتراء في رسالته إليهم. ثم يكرر عليهم مناشدته لهم بتقوى الله عَزَّ وجل، الموجبة للطاعة والاتباع ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا عقاب الله عَزَّ وجل، وأطيعون فيما أدعوكم إليه، وأبينه لكم مما أُرسلت به إليكم. وفي هذا تأكيد للتقوى. بما يبين أهميتها، وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة.

ثم يتدرج معهم في الخطاب، الذي يزيل به الموانع التي قد يظنونها ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فلا اسألكم على ما أدعوكم إليه ثمناً، ولا نفعاً، بما يفيد ليس لي طمع في المال ولا غيره، ولا أريد أن استعلي عليكم بكثرة المال، بل نفى لهم ذلك بأي نوع من أنواع الأجر، سواء كان مادياً، أو معنوياً بالمنزلة والجاه. فجملة ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ تفيد أي نوع من الأجر والنفع، كما تفيد جملة ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ ﴾ نفي المطالبة لكم، ثم يؤكد أن مصدر الأجر الذي يرجوه أنه من الله سبحانه وتعالى وليس منكم ﴿ إِنْ أَجْرِىَ

﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالأجر الذي أرجوه هو من رب العالمين. بل جاء السياق بحصر الرجاء فقط من الله تعالى. بما يبين لهم ويفيد أن الله تعالى هو رب كل شيء ومالكه، وأن الأرزاق منه وحده لا شريك له. فهو الذي يرزقكم ويرزقني، ويرزق جميع عباده.

ويلاحظ أن الآيات السابقة من قصة صالح تماثل الآيات من قصة نوح وهود ولوط وشعيب عليهم السلام، بما يفيد وحدة المنهج والأصل والغاية بين المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثم يوجه لهم رسول الله صالح عليه السلام سؤالاً يحمل الاستنكار عليهم فيما يعتقدون من إنكار البعث والحساب والجزاء ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أتعتقدون أنكم في هذا النعيم في مأمن من الحساب، والسؤال والجزاء. فإنه سؤال يستثير الفكر عن مواقف وواقع الحال وما يتبعه من الحساب. فهل تعتقدون أن ربكم يترككم في مأمن منه فيما أنتم فيه من نعيم هذه الحياة الدنيا، ثم يعدد لهم مجمل النِّعَم التي يرفلون ويتنعمون فيها ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ في حدائق من البساتين وأنواع الزروع الكثيرة والمتنوعة، وما جعل فيها من العيون التي تتدفق عليكم بالمياه. فلفت انتباههم وتفكيرهم إلى عملية الخلق، وفضل الإنعام، ثم ينتقل إلى أشهر المحاصيل التي لديهم، وهي ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ فإضافة إلى كثرة الجنات من المزارع والحدائق وعيون الماء المتدفقة، فقد أنعم عليكم بالزروع ﴿وَزُرُوعٍ﴾ التي تشمل أنواع النَّبْت الأخضر المزروع. ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ وكذلك أنعم عليكم بأشجار النخيل التي تميزت بطلعها الطيب اللذيذ من التمور، وأن من جميل صفاته أنه ﴿هَضِيمٌ﴾ أي: اللين اللطيف، وذلك من كمال وتمام نضجه ولذته.

ثم ذكر لهم أن من تمام ما أنعم الله تعالى به عليكم أن رزقكم فكرة الأبنية في الجبال ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ فأقدركم ربكم سبحانه وتعالى على نحت الجبال حتى تمكنتم من اتخاذها مساكن لكم. فهو الذي أقدركم عليها بما وهبكم من الفكر، والاستدلال على اتخاذها بيوتاً لكم. مما يُوجب عليكم الخوف من الله تعالى، ومراقبته وطاعته، فأرشدهم إلى التقوى الموجبة لطاعته واتباعه، والتي هي طاعة لله تعالى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فخافوا الله تعالى وارجوا ما عنده من النعيم باتباع ما جئتكم به من الله عَزَّ وجل.

ثم يبين لهم ما يجب أن يجتنبوه من وسائل الفساد ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فلا تطيعوا ولا تنقادوا لأمر المسرفين ونهجهم، فتقتدوا بهم، وتجعلونهم قادتكم وأسوتكم فيما هم فيه من الإسراف، الذي هو التمادي في الكفر والعناد، وفي التباهي بالأموال. ثم وصف لهم منهج هؤلاء المسرفين الذين نهاهم عن طاعتهم

﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ فهم متصفون بالإفساد في الأرض، والامتناع عن الصلاح والإصلاح فيها، بل من قوة فسادهم أن قصر أعمالهم على الفساد فقط الخالية من كل خير، فنفى عنهم تقديم النفع والإصلاح، بما يبين قوة تماديهم في الاسراف البغيض، وامتناعهم عن تقديم ما ينصلح به حال الناس، وتنصلح به الأرض. فيحثهم على التأمل والتفكر في الذين يقتدون وينقادون لهم، فإنهم لا يقدمون لكم نفعاً البتة، بل يقدمون لكم ما يفسدكم. فإذا تأملتم حالهم تبين لكم أنهم أهل فساد. فكيف تطيعونهم وهم يدمرون حياتكم. فاجتنبوهم وأطيعوا الحق الذي يأمر بالإصلاح، وينهى عن الفساد، وينجيكم يوم الحساب من العذاب.

فكان ردهم على رسولهم الناصح لهم هو ما قاله الله تعالى عنهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ فحصروا حال رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام بأنه مسحور بنوع من السحر، ودعوته لهم من دلائل السحر عليه. بل أكدوا ذلك بأسلوب الحصر، الذي يفيد: أنك واحد من المسحورين، لأن ﴿ إِنَّمَآ ﴾ تفيد الحصر، فليس بك علة أخرى إلا السحر. وبالتالي كيف نتبعك وأنت رجل مسحور. وهذا يدل على تعاليهم بقوة الافتراء منهم، ورغبتهم في دفع وإبعاد الناس عن رسولهم، وتشويه حقيقة أمره وشأنه. مما يبين ويفيد أن المعاند والمكابر يفتري الكذب من أجل تحقيق ما يريد من الباطل.

ثم عززوا امتناعهم بأنه رجل مثلهم من الإنس، فلا يختلف عنهم بشيء ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فما أنت يا صالح إلا إنسان مثلنا من جنس البشر ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ فما الذي ميزك عَنَّا بما تدعونا إليه من الدين. فكأنهم يريدون تحديد الرسول بأن يكون خارج نطاق البشر، وخارج عن جنس الإنسان. ولو جاء الرسول من غير جنس الإنسان لطعنوا فيه وأنكروه، واتهموه، واعترضوا عليه، ولم يفهموه. كما أن في تنقلهم بين التهم غير المتوافقة وغير المتعاضدة، ما يثبت أنهم أهل بُهت وافتراء وعناد، فإن اتهامهم لرسولهم بالسحر يُوجِب عليهم عدم تبرير امتناعهم عن تصديقه بعلة كونه بشر مثلهم، فتهمة السحر تُبطل كل نوع من المطالبة. وبالتالي لماذا إذاً يذهبون لعلة التماثل معهم في جنس البشرية، وقد رموه بالسحر. فإن في اتهامه بالسحر قد قطع البحث عن كل علة أخرى. لأن اتهامه بأنه مسحور، يتبعه أنه لا يصح منهم أن يطالبوه بأن يكون من غير جنس البشرية حتى يصدقوه.

ثم بعد هاتين العلتين المتناقضتين يطلبون منه علامة وبينة على أنه رسول من الله تعالى إليهم ﴿ فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فأت بحجة واضحة تدل على أنك رسول من رب العالمين إن كنت صادقاً فيما تقول. فإن اتهامهم لرسولهم بالسحر يمنع أن يطلبوا منه بينة وحجة، فعامل السحر قاطع لهذا الطلب. لأن طلب الآية منه حتى يصدقوه ينافي اتهامهم له بالسحر، فكيف يطلبون من مسحور على حد حكمهم أن يأتي

بآية لتثبت صدقه. فإن أتاهم بآية فهل يُسقطون عنه تهمة السحر؟ فَرُدُودَهُم المتناقضة تدل على تلاعبهم بالحقائق، وتدل على العناد والاستكبار، وهو ما سيظهر منهم عند خروج الآية التي طالبوه بها. فهم تائهون بين رميه بالسحر، وبين كونه بشر، وبين مطالبته بالآية. فإن من بهتهم وتماديهم واستعلائهم وتكبرهم وعجزهم عن رد الحق أنهم تائهون في تنقلهم بين التهم المتناقضة وغير المتوافقة وغير المتعاضدة، بما يثبت أنهم أهل افتراء وعناد.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بأنه أعطى رسوله صالح عليه الصلاة والسلام آية عظيمة، تدل على نبوته ورسالته ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فقال لهم نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام: هذه ناقة الله تعالى تخرج من هذه الصخرة الصماء، فلكم فيها برهان وحجة بينة، ودلالة على حقيقة ما أدعوكم إليه. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: قيل: ناقة الله، لأنه أخرجها لهم من جبل، على ما طلبوا، على أنهم يؤمنون، وقيل: أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر، يُقال لها: الكاثبة، فلما خرجت الناقة على ما طلبوا، قال لهم نبي الله صالح ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[1] كما في سورة هود. ففي خروجها بتلك الصورة والهيئة كفاية في حجيتها. ثم طلب منهم أن يكون لها حظ من الماء، فيتركونها تشرب يوما من غير مزاحمة لها، ولهم يوم يسقون منه ولا تزاحمهم الناقة فيه ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاتركوها تشرب من الماء من غير مشاركة لكم معها في ذلك اليوم، ويلزمكم أن لا تؤذوها فيما خُصِّصَ لها ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ولكم أنتم يوم تشربون فيه من الماء، لا تزاحمكم الناقة فيه، ولا تَرِدُهُ أبداً، فتكون ممتنعة عنه. وقال قتادة رحمه الله تعالى: كانت إذا كان يوم شربها، شربت الماء أول النهار، وسقتهم اللبن آخر النهار[2] ثم نهاهم عن إيذائها بأي نوع من الأذى ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ولا تنالوها بما يسوء، سواء من قتل أو ضرب أو أي نوع من الأذى. ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فينالكم من الله تعالى عذاب شديد، فيهلككم به إن تعرضتم لها بأذى. وفي هذا إعلام وتحذير، بعد تلك الحجة والبرهان الخارق للعادة، والمبهر للنفوس والعقول.

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٩/٤١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٤٨)

ولكنهم لم يمتثلوا، بل عاندوا رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴾ فقد قتلوا الناقة ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ وهو القتل للناقة بنحرها. قال ابن قتيبة: والعقر يكون بمعنى القتل[١] والعقر هو الجرح، وقيل قطع عضو يؤثر في النفس[٢] فيتلفها. وأسند العقر إلى الجميع، مع كون العاقر واحد منهم، لأنهم راضون بذلك، وموافقون عليه[٣] ﴿ فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴾ فأصبح القوم متأسفين نادمين على ما فعلوا، بما يفيد أنهم رأوا ظهور علامات العذاب، وبالتالي لم ينتفعوا بالندم، فقد حل بهم العذاب من الله تعالى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: عرفوا أن العذاب نازل بهم، وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً، فظهرت عليهم العلامات في كل يوم، وندموا، حيث لا ينفع الندم، لأن ذلك لا يُجدي عند معاينة العذاب، وظهور آثاره[٤] مما يبين أنه عند حلول عذاب الله تعالى فلا ينفع الندم، مما يوجب على الإنسان الاتعاظ بما وعظ الله تعالى به ووعظ به رسوله صلى الله عليه وسلم. ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فأدرك العذابُ قومَ ثمود من الله تعالى الذي توعدهم به نبي الله صالح عليه السلام. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أن أرضهم زُلزِلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة، اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكن يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين[٥]

ثم يختم الله تعالى قصة قوم صالح عليه الصلاة والسلام بما ختم به في صدر هذه السورة الكريمة عند ذكره سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه الذين كفروا به، وكذلك بما ختم به قصة موسى، ونوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن فيما بيناه سابقاً من شأن صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه لحجة واضحة لهم وللناس، ومع ذلك فإن أكثرهم ليسوا بمؤمنين، كما فأفادت دلالة الآية كذلك: أن أكثر الناس هم على الكفر. بما يعطي دلالة قلة عدد المسلمين بالنسبة للكافرين. وهذا بيان إعجاز لواقع الحال في كل زمان. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) المرجع السابق (١٥٣/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/٧)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢٢٠/٢)

(٤) المرجع السابق (١١٢/٤)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٧/٣)

ٱلرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك أيها الرسول هو العزيز الذي يقهر من عصاه، ويُذلهم ويخزيهم. وهو الرحيم بأوليائه، وهو الرحيم بالناس بما بينه وحذرهم ووعظهم به من المواعظ، وتأخير عقوبتهم، وقبول توبة التائبين.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ
مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ
يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾
فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى عرض قصة قوم نبي الله لوط عليه السلام. وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وقد بعثه الله تعالى إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم. وكانوا يسكنون سدوم التي أهلكهم الله تعالى فيها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال بيت المقدس[1]

فيقول تبارك وتعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فقد كفر قوم لوط برسولهم لوط عليه السلام. فبدأ البيان بالمحصلة والنتيجة من خبرهم، وهي كفرهم برسولهم لوط عليه الصلاة والسلام، فيتبع ذلك الكفر كفرهم بالشريعة التي جاءهم بها. وكفرهم كذلك بجميع المرسلين، حيث ورد التكذيب بصيغة الجمع للمرسلين ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ولم يأتيهم إلا رسول واحد، وذلك لاتحاد واتفاق دعوة المرسلين في أصول رسالتهم، وفي أهدافها وغايتها، فمن كذب بواحد منهم فقد كذب بالجميع، وبما يفيد أنهم لا يؤمنون بالمرسلين من الله تعالى، لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وبالتالي لا يؤمنون بالحساب والجزاء، ولا بالحاجة إلى المرسلين.

ثم أكد تبارك وتعالى مكانته منهم، بصفة الأخوة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فيوجه لهم أخوهم لوط عليه السلام سؤال استنكار من عدم قبولهم الحق الواضح المبين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون الله تعالى وترجونه، فتتركون عبادة الأصنام، وتفردونه بالعبادة الخالصة، وتنتهون عن إتيان الذكران من العالمين، وتتمثلون بأخلاق الدين، وتستجيبون للرسول الذي هو بمنزلة الأخ لكم. إذ هو حريص على نجاتكم يوم البعث

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٥٧)

والنشور. وفي استنكاره هذا ما يفيد أنهم كذبوه، فيستحثهم بلزوم الخوف من الله تعالى، التي مركزها ومعقلها التقوى.

ثم يؤكد لهم أمانته وصدقه وحرصه بما يعرفونه عنه من الأمانة والصدق ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فإني لكم رسول من الله تعالى فيما أبلغكم به، وإنني أمين على ما أبلغكم به، بما ينفي كل نوع وقدر من الافتراء في رسالته إليهم. ثم يكرر عليهم مناشدته لهم بتقوى الله عَزَّ وجل، الموجبة للطاعة والاتباع ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا عقاب الله عَزَّ وجل، وأطيعون فيما أدعوكم إليه، وأبينه لكم مما أُرسلت به إليكم. وفي هذا تأكيد للتقوى. بما يبين أهميتها، وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة. ثم يتدرج معهم في الخطاب الذي يزيل به الموانع التي قد يظنونها ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلست اسألكم على ما أدعوكم إليه ثمناً، ولا نفعاً، بما يفيد ليس لي طمع في المال ولا غيره، ولا أريد أن استعلي عليكم بكثرة المال، بل نفى لهم ذلك المقصد من أي نوع من الأجر، سواء كان مادياً أو أي نوع غيره من أنواع المنافع وضروبها. فجملة ﴿مِنْ أَجْرٍ ﴾ تفيد أي نوع من الأجر والنفع، كما تفيد ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ ﴾ نفي المطالبة لكم، ثم يؤكد أن مصدر الأجر الذي يرجوه هو من الله سبحانه وتعالى، وليس منكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فالأجر الذي أرجوه هو من رب العالمين. بما يبين لهم أن الله تعالى هو رب كل شيء، وأن الأرزاق منه وحده لا شريك له. فهو الذي يرزقكم ويرزقني، ويرزق جميع عباده.

ويلاحظ أن الآيات السابقة من قصة لوط تماثل الآيات من قصة نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام، بما يفيد وحدة المنهج والأصل والغاية بين المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثم يُوجِّه لوط لقومه سؤال استنكار، وتوبيخ على ما هم عليه من إتيان الذكران من الرجال ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: كيف تنكحون الرجال، وتذرون النساء، فتخالفون جميع العالمين، وتخالفون سنة الله تعالى فيما خلق لكم من الإناث. وعن دلالة جملة ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ﴿مِنَ ﴾ فصلية، أي: تفيد معنى الفصل بين متخالفين، بحيث لا يماثل أحدهما الآخر. فالمعنى: مفصولين من العالمين، لا يماثلكم في ذلك صنف من العالمين[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: أي: أتأتون أنتم من بين من

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٠٢/٨)

عداكم من العالمين الذكران، يعني أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة[١] مما يفيد أنه لم يسبقهم أحد من العالمين من قبل، فهم أول من عملوا هذا العمل. فخالفوا الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، بهذا العمل الفظيع. ومن أخلاقيات البيان أن التعبير ورد بلفظة ﴿أَتَأْتُونَ﴾ كناية عن التصريح بالفعل. وبهذا فإن أسلوب القرآن يُعَلِّم أتباعه الحياء في الألفاظ، وذلك باستخدام الكناية، وما يغني عن التصريح من الألفاظ والأساليب. فالحمد لله رب العالمين على نعمة الحياء، وجميع أخلاق الإسلام وآدابه وهديه.

ويستمر الإنكار عليهم خاصة مع وجود ما أغناهم الله تعالى به من النساء ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: كيف تأتون الرجال وتتركون الذي خلقه الله تعالى لكم، وهيئه لكم من أزواجكم؟ فأنتم مجاوزون للحدود والفطرة الربانية التي خلقكم الله تعالى عليها. وهو سؤال يستثير عامل التعقل والتفكر في قوة المخالفة البشعة والشنيعة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ بل أنت متجاوزون ومتعدون.

وقد ورد الانتقال البياني بحرف ﴿بَلْ﴾ إذ انتقل به من الوعظ والإرشاد إلى الحكم عليهم بدلالة صنيعهم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ فأنتم أصحاب تعدي ومجاوزة، حتى أصبح هذا الفعل الشنيع صفة لكم. فقد انتقلتم إلى مزاولة الباطل وتعديتم الحدود الفطرية وتجاوزتموها إلى الفساد المخالف للفطرة السوية، والمخالف للغاية والهدف من تحصيل الجماع. فهذا الحكم بالعدوان يعضد ما أنكره عليهم من فعلهم البشع. فقد شَنَّعَهُ عَزَّ وجل أشد التشنيع. كما أفاد تعميم هذا الفعل عليهم أنه قد شاع فيما بينهم حتى ورد التعميم به عليهم، وذلك لانتشاره بينهم، فكان الحكم يستوفيهم جميعاً ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ فجميعكم أصحاب تعدي ومجاوزة، وأصبح هذا الفعل الشنيع صفة لكم.

فكان ردهم على رسول الله لوط عليه السلام بنوع من التحدي والعداء، فردوا عليه بمثل ما رد قوم نوح على نبيهم ورسولهم عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: فإن لم تتوقف عن الإنكار علينا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: لنخرجنك من قريتنا، فلتكونن في عداد المطرودين من بلادنا، أي: نُخرجك من قريتنا بالقوة، وهنا يَرُدُّ عليهم لوط عليه السلام بما قاله الله تعالى عنه

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٢٧/٣)

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ فيقول لهم لوط عليه الصلاة والسلام: إني لعملكم الذي نبهتكم عليه لمن المبغضين الكارهين له. فدلالة ﴿ٱلْقَالِينَ﴾ تعني المبغض والكاره للشيء.

ثم يتوجه عليه الصلاة والسلام إلى ربه بالدعاء، كما توجه غيره من المرسلين ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فطلب النجاة وأهله مما توعدهم به سبحانه وتعالى، وكذلك من عملهم الخبيث، ومن العذاب الذي سيصيبهم. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: من عملهم الخبيث، أو من عقوبته التي تصيبهم[١] فسأل الله تعالى أن ينجيه وجميع أهله. فأجاب الله دعاءه ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه أنجا لوطاً عليه الصلاة والسلام وأهل بيته، ومن تابعه على دينه. واستثنى سبحانه وتعالى امرأة لوط من النجاة ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فأنجينا لوطاً وأهل بيته غير زوجته، وهنا لم يذكرها سبحانه وتعالى بالزوجة، بل ذكرها سبحانه وتعالى بصفة حالها التي عليها ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ امتهاناً لها، ودلالة على أنها قد انفصلت بكفرها عن زوجها، فانفصلت عنه خاتمة ومكاناً، ومآلاً، لأن مآلها ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وهم الباقين في العذاب. فأضافها عَزَّ وجل للغابرين، لأنها لم تؤمن مع نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام، واختارت دين قومها، مما يبين أن ليس للإنسان إلى ما عمل، فلا ينفعه أحد ما لم يكن من المؤمنين الطائعين لله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن عذابه لهم، ونكايته المخزية الفظيعة بهم ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فأهلكنا الذين كفروا بعد أن نجينا المؤمنين ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فأمطر الله تعالى عليهم الحجارة، بما يفيد القذف والرمي بالحجارة التي أهلكتهم ودمرتهم، وقد أورد الله تعالى هلاكهم بأسلوب التأكيد والمبالغة في هلاكهم، وذلك بتكرار فعل الإمطار، فمن دقائق البيان أنه بعد أن ذكر سبحانه وتعالى الفعل الأصلي الذي هو ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ ألحقه بالتأكيد ﴿مَّطَرًا﴾ وهو ما يتحقق به التأكيد والمبالغة من شدة ما أمطرهم به من الحجارة. ويفيد ويبين معنى فعل الإمطار ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ الإنزال من العلو للحجارة، لتكون أكثر اثراً عليهم، ولتفيد دلالة كثرة الحجارة، وتعاقبها في السقوط، وكأنه مطر في كثرته وقوته وعلوه، غير أنه من الحجارة.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١١٤/٤)

ثم يُقبح الله تعالى ما أصابهم من العذاب، إمعاناً في ذمهم ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ فبئس ذلك المطر، الذي أُمطِر به القوم الذين أَنْذَرَتهم رُسُلُهم فكذبوهم، فَقُبِّحوا من مُنْذَرِين، يأتيهم الحق بالدليل والبرهان فيتولوا عنه مدبرين.

ثم يختم الله تعالى قصة قوم لوط بما ختم الله تعالى به ما جاء في صدر هذه السورة الكريمة عند ذكره عَزَّ وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه الذين كفروا به، وكذلك بما ختم به قصة موسى، ونوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن فيما بيناه سابقاً من شأن لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه لحجة واضحة لهم وللناس، ومع ذلك فإن أكثرهم ليسوا بمؤمنين، فأفادت دلالة الآية كذلك: أن أكثر الناس هم على الكفر. بما يعطي دلالة قلة عدد المسلمين بالنسبة للكافرين. وهذا بيان إعجاز لواقع الحال في كل زمان. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك أيها الرسول هو العزيز الذي يقهر من عصاه، ويُذلهم ويخزيهم. وهو الرحيم بأوليائه، وهو الرحيم بالناس؛ بما بينه وحذرهم ووعظهم به من المواعظ، وتأخير عقوبتهم، وقبول توبة التائبين.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ
فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ
﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ
كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى عرض قصة قوم نبي الله شعيب عليه السلام. فيقول تبارك وتعالى ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فبدأ البيان بالمحصلة والنتيجة من خبرهم، وهي كفرهم برسولهم شعيب عليه الصلاة والسلام، فيتبع ذلك الكفر إنكار الشريعة التي جاءهم بها. ويُعتبرون بذلك مكذبين

بجميع المرسلين، حيث ورد التكذيب بصيغة الجمع للمرسلين ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ في حين أنه لم يأتهم إلا رسول واحد، وهو شعيب عليه الصلاة والسلام، بما يفيد أن من كذب بواحد منهم فقد كذب بالجميع، لاتحاد واتفاق دعوة المرسلين في أصول رسالتهم، وفي أهدافها وغايتها.

وأصحاب الأيكة هم أصحاب مَدْيَن، قال ابن كثير رحمه الله تعالى ما ملخصه: هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب، لأنهم نُسِبُوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وإنما قال ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نُسِبُوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. فمن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أصحاب مدين. والصحيح أنهم أمة واحدة، وُصِفُوا في كل مقام بشيء، ولهذا وَعَظَ هؤلاء، وأَمَرَهُم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة[١] فيخبر الله تبارك وتعالى بما بدأ به شعيب قومه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فَوَجَّه لهم شعيب عليه السلام سؤال استنكار من عدم قبولهم الحق الواضح المبين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون الله تعالى وترجونه، فتتركون عبادة الأصنام، وتفردون ربكم بالعبادة الخالصة، وتستجيبون للرسول الحريص على نجاتكم يوم البعث والنشور. وفي استنكاره هذا ما يفيد أنهم كذبوه، فيستحثهم بلزوم الخوف من الله تعالى، التي معقلها التقوى.

ثم يؤكد لهم أمانته وصدقه وحرصه بما يعرفونه عنه من الأمانة والصدق ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فإني لكم رسول من الله تعالى فيما أبلغكم به، وإنني أمين على ما أبلغكم به، بما ينفي كل نوع وقدر من الافتراء في رسالته إليهم. ثم يكرر عليهم مناشدته لهم بتقوى الله عَزَّ وجل، الموجبة للطاعة والاتباع ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا عقاب الله عَزَّ وجل، وأطيعون فيما أدعوكم إليه، وأبينه لكم مما أُرسلت به إليكم. وفي هذا تأكيد للتقوى. بما يبين أهميتها، وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة.

ثم يتدرج معهم في الخطاب الذي يزيل به الموانع التي قد يظنونها ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلست اسألكم على ما أدعوكم إليه ثمناً، ولا نفعاً، بما يفيد ليس لي طمع في المال ولا غيره، ولا أريد أن استعلي عليكم بكثرة المال، بل نفى لهم ذلك بأي نوع من أنواع الأجر. فجملة ﴿ مِنْ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٥٧-٣٥٨)

أَجۡرٍ ﴾ تفيد أي نوع من الأجر والنفع، كما تفيد ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ ﴾ نفي المطالبة لهم بشيء، ثم يؤكد أن مصدر الأجر الذي يرجوه هو من الله سبحانه وتعالى وليس منهم ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فالأجر الذي أرجوه هو من رب العالمين. والذي ورد بأسلوب القصر على الله رب العالمين فقط. بما يبين لهم أن الله تعالى هو رب كل شيء، وأن الأرزاق منه وحده لا شريك له. فهو الذي يرزقكم ويرزقني، ويرزق جميع عباده. ويلاحظ أن الآيات السابقة من قصة شعيب تماثل الآيات من قصة نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام، بما يفيد وحدة المنهج والأصل والغاية بين المرسلين عليهم الصلاة والسلام. وكذلك تشابه المخالفين.

ثم يوجههم شعيب إلى الانتهاء عن البخس الذي يتعاملون به في الميزان والمكيال، وذلك بعدم الوفاء فيما يكون منهم عند الكيل والميزان ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴾ أتموا واستوفوا الكيل لمن تُكِيلون له مما اشتراه منكم من المكيل. ولا تكونوا من الْمُنقِصين للكيل والوزن، فتحققون الخسارة لغيركم، وتنهبون أموالهم بالسرقة. فابتدأهم بفعل الأمر ﴿ أَوۡفُواْ ﴾ الذي أفاد من حيث الأسلوب العزم، وقوة الإرادة في البيان. كما أفاد أن الشائع والمنتشر فيهم التطفيف والنقص عند الكيل والوزن لغيرهم. فأمرهم بالوفاء. ثم عَيَّن لهم موقع النقص الذي يجب فيه الوفاء والاستيفاء وهو الكيل ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ ﴾ وهو ما يُكال به الحبوب كالقمح والشعير ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴾ ولا تكونوا ممن يحقق الخسارة لغيره بالتطفيف في الكيل، فتسلبونهم أموالهم بالظلم والافتراء. ثم بعد أن كشف لهم ما هم عليه، وحذرهم منه، يوجههم عليه السلام إلى العدل ﴿ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾ وليكن وزنكم لغيركم بالميزان العادل الذي لا حيف فيه.

ثم يؤكد لهم ما يجب عليهم في الموازين بصيغة العموم؛ ليشمل جميع معاملاتهم مع غيرهم ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ ولا تُنقِصُوا الناس حقوقهم المتفق عليها، والبخس هو النقص على سبيل الغش والخداع والظلم. كما عمم البيان في جنس الإنسان، فليس فقط بينكم، ومع من تعرفونه، بل مع جميع الناس. كما عمم السياق الكريم موقع الغش، ولم يحصره في نوع محدد، بل في كل شيء ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ فتشمل جميع الأشياء، من الحقوق التي لهم، سواء كانت حقوقاً مادية أو أدبية. وهذا من دقائق الإعجاز في كلام الله العزيز الحكيم.

ثم نهاهم عن عموم الفساد في الأرض ﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ فلا تسعو في الأرض مفسدين فيها بالمكاييل والموازين، وبخس الناس حقوقهم المختلفة، وغيرها من عموم الفساد، فلا يكن ذلك سجية

وسمة لكم، تتصفون بها، وتُعرفون بتميزكم فيها. وأعطت كلمة ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ دلالة العموم للفساد بجميع أنواعه، سواء كان في الدين، أو في الأخلاق، أو في جميع شؤون الناس، من غير تحديد. كما أن في ربطها بالأرض ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تستوعب وتشمل كل مكان أنتم فيه أو تحلون عليه، فيجب عليكم أن تمتنعوا عن الفساد فيه، وسواء عند من تعرفونهم ويعرفونكم، أو عند من تجهلونهم ويجهلونكم. وهذه دقة في البيان التي استوعبت النوع والمكان والزمان بعمومه.

ثم يأمرهم بالتقوى، تأكيداً لما بدأهم به، بما يؤيد ويوضح أنها عامود الاستقامة والامتثال لله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ راقبوا الله تعالى الذي خلقكم وخلق الأمم من قبلكم. لئلا يعذبكم بكفركم وما أنتم عليه من التطفيف في المكيال والميزان وغيره من الفساد. ومعنى الجبلة: الكثرة ﴿ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ والأولين: هم من كان قبلكم. أي: والخلق الكثير الذين خلقهم ربكم من قبلكم. وذكر الهروي رحمه الله تعالى أن: الجبلة والجبل هو جمع العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى من سورة يس ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: خلقاً كثيرا[1] فأرشدهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام إلى لوسيلة التي تحقيق التقوى، بأن يتأملوا في إيجادهم وخلقهم، ومن كان قبلهم من الأمم والأجيال الكثيرة المتعاقبة. مما يبين أن من تأمل في الكون، ووجوده، ووجود من فيه، وحال الأمم، وتعاقبها، فإنه يدرك بذلك عظمة تدبير الله تعالى، ويدرك أيضاً معه وجوب طاعته عَزَّ وجل، والامتثال لشريعته، وأن الذي خلق لا يمكن أن يترك ما خلق هملاً بلا رعاية، ومن غير حساب، وجزاء.

فكان ردهم على رسولهم شعيب مشابه لردود قوم صالح عليهما الصلاة والسلام، بأن طعنوه في ذاته أولاً عليه السلام ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ فحصروا حال رسولهم شعيب بأنه مسحور بنوع من السحر، وبالتالي حكموا على دعوته لهم بأنها تدل على أنه نوع من آثار السحر. ثم عززوا امتناعهم بأنه رجل مثلهم من الإنس، فلا يختلف عنهم في شيء ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فما أنت يا شعيب إلا إنسان مثلنا، لم تتميز عنا بما يجعلك تكون رسولاً ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فما الذي ميزك عنا بما تدعونا إليه من الدين. ثم بنوا على ذلك أنه من الكاذبين ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فإننا نعتقد موقنين أنك من الكاذبين، فلا نعتقد فيك إلا أنك من فئة الذين يَدَّعُون ما ليس له حقيقة. بما يفيد

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩١/١٣)

تكذيبهم لرسولهم، وجزمهم بذلك. والظن ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ ﴾ بمعنى اليقين، وهو شائع استخدامه في الوصف. فكان ردهم مماثل لقوم ثمود على نبيهم صالح عليه السلام. فينطبق عليهم ما ورد في تحليل قصة قوم صالح عليهما الصلاة والسلام.

ثم من جزمهم بكفرهم وعنادهم أن طلبوا تحقيق العذاب فيهم إن كان صادقاً فيما يدعوهم إليه، وما توعدهم به من عذاب الله تعالى ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فإن كنت صادقاً فيما تتوعدنا به فأنزل علينا ﴿كِسَفًا ﴾ أي: جانباً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ليكون دليلاً على صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ قال الجوهري رحمه الله تعالى: والكسفة: القطعة من الشيء[1] وفي هذا الطلب منهم مبالغة منهم في تكذيب رسولهم عليه الصلاة والسلام. وتحدي له إن كان هناك عذاب وعقوبة لمن عصاه.

فرد عليهم نبي الله شعيب بأن الأمر لله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإن ربي أعلم مني بما هو منكم، من الكفر والشرك والمعاصي، وبالتالي هو أعلم بما تستحقونه من العذاب. بما يفيد الإنذار والتهديد لهم. فيقرر الله تبارك وتعالى تكذيبهم، ويقرر ما يستحقونه من عذاب الدنيا، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فكذبوا رسول الله إليهم، بإصرارهم واستمرارهم على ذلك ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ والظلة كما قال العلماء: السحاب، الذي أقامه الله تعالى فوق رؤوسهم، فأمطرت عليهم ناراً فأهلكتهم، فأصابهم الله بما اقترحوا، فهو من جنس ما طلبوا من نبيهم شعيب عليه السلام. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أصابهم حر شديد جداً، لمدة سبعة أيام، لا يكنهم ويحميهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها، يستظلون بظلها من الحر. فلما اجتمعوا جميعهم تحتها؛ أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيما، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم[2] ولذلك سَمَّاه الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لما فيه من القوة والشدة والقسوة التي نالوها، وذاقوا حرارتها ومرارتها. مما يبين قدرة الله تعالى، وأن على الإنسان أن يمتثل لما جاءه من الحق. وأن في ذلك عبرة لكل معتبر.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٢/١٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٩/٣)

ثم يختم الله تعالى قصة قوم شعيب بما ختم به ما جاء في صدر هذه السورة الكريمة عند ذكره سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه الذين كفروا به، وكذلك بما ختم به قصة موسى، ونوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن فيما بيناه سابقاً من شأن شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه لحجة واضحة لهم وللناس، ومع ذلك فإن أكثرهم ليسوا بمؤمنين، فأفادت دلالة الآية كذلك: أن أكثر الناس هم على الكفر. بما يعطي دلالة قلة عدد المسلمين بالنسبة للكافرين. وهذا بيان إعجاز لواقع الحال في كل زمان. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك أيها الرسول هو العزيز الذي يقهر من عصاه، ويُذلهم ويخزيهم. وهو الرحيم بأوليائه، وهو رحيم بالناس بما بينه وحذرهم ووعظهم، وتأخير عقوبتهم، وقبول توبة التائبين.

ويلاحظ أنه لم يؤخذ في إيراد تلك الأحداث بالترتيب الزمني لذلك القصص، حيث بدأت بقصة موسى مع فرعون، ثم بعد ذلك قصة إبراهيم ثم نوح، ونوح قبل إبراهيم من حيث الزمن عليهم الصلاة والسلام. ثم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وهو من حيث الزمن أن رسول الله نوح قبل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ثم بقية المرسلين، ثم موسى عليهم الصلاة والسلام جميعاً، فنوح قبل إبراهيم، ولكن إبراهيم تقدم هنا على نوح. كما أن موسى متأخر عنهم وعن بقية المرسلين المذكورين، ولكنه تقدم عليهم. والسبب أن الغاية لم تكن في التتالي الزمني وإنما أقربهم زمناً للمشركين في عهده صلى الله عليه وسلم هو موسى عليه الصلاة والسلام، واليهود موجودون وقريبون منهم. وكذلك تناسبت مع نوع الأحداث، والمعجزات. مما يبين دقة القرآن في التقديم والتأخير حتى في الأحداث كما هو في البيان والألفاظ والإرشاد والتوجيه. وهي جديرة بالدراسة.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ
عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ
عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ
جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

وبعد أن عرض تبارك وتعالى قصص الأنبياء مع أقوامهم، وما بذلوه لهم في دعوتهم من الوعظ والنصح بطاعة الله تعالى، وبيان ما ردوا به عليهم من الكفر والاستعلاء، يبين عَزَّ وجل منزلة هذا القرآن الكريم،

ومنزلة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أُنْزِل عليه هذا الكتاب العظيم، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن هذا القرآن الذي ذُكِرت فيه قصص الأنبياء المرسلين فإنه مُنَزَّلٌ من خالق الخلق أجمعين، ومالك الأمر كله. وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي: القرآن فيما تقدم ذكره في أول صدر هذه السورة، وهو قوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ والتي انفصلت عنها بما بينهما من آيات السورة العظيمة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ولكن هذه الجملة متصلة في المعنى بجملة ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ بحيث لو لا ما فُصِل بينها وبين الأخرى من طول الكلام لكانت معطوفة عليها[١] وهو ما أشار إليه كذلك ابن كثير رحمه الله تعالى[٢] وقد وجَّه الله تبارك وتعالى الخطاب بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه المعني بالنزول على قلبه صلى الله عليه وسلم، وليشمل البيان بقية العباد باعتباره الْمُبَلِّغ لهم، وهم الْمُخَاطَبُون به.

ثم أخبر وبين عَزَّ وجل طريقة نزوله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ نزل بالقرآن العظيم على رسوله الكريم جبريل عليهما الصلاة والسلام، فهو الروح الأمين. ولعل تسميته بالروح، لأنه من عالم الملائكة التي تختلف عن الإنسان، إضافة إلى دلالة الروح التي تعني الحياة، وهو كذلك ينزل بما فيه حياة الناس، وهو كلام رب العالمين. وفي وصف جبريل بالأمانة ما يفيد تزكية الله تعالى له، بأنه أمين بما ينزل به، مما كلفه الله تعالى به، فَيُوصِل كلام الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم كما هو. ثم عَيَّن سبحانه وتعالى مكان الإنزال من شخص النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أي: ينزل به مباشرة إلى القلب، فيتلوه عليك جبريل عليه السلام، فيعقد عليه قلبك بفضل الله تعالى وبقدرته، من أجل أن تُنذِّر به الناس. وفي تخصيص الإنزال على القلب، ما يبين أنه الوعاء للعلم والحفظ والفهم، وفي دلالة تعيين القلب وتحديده ما يفيد كمال وعيه الوعي الذي يثبت معه ثبوتاً لا يختلط عليه منه شيء صلى الله عليه وسلم.

وفي قوله تعالى ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ بيان لعلة وسبب إنزال القرآن الكريم فيما يخص العباد، لِتُنْذِرَهم به. فتكون أنت من فئة الرُّسل المنذرين، لأن جملة ﴿ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ تفيد أنك واحد من المنذرين بما أنزله ربك عليك. فتكون واحداً ممن سبقك من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وفي وصف التكليف بالنَّذَارة، باعتبار ما سبق عرضه من إنكار الأمم السابقة في هذه السورة، الذي أفاد كثرة المعرضين

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٠٩/٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٩/٣)

ممن سبق من الأمم، وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فجاء البيان والاختيار للإنذار بما يناسب سياق أحداث السورة الكريمة. فالإنذار أولى في غيرهم. وإن كان عليه الصلاة والسلام وُصِف في آيات أخرى بأنه مبشراً ونذيراً. لكن باعتبار سياق وأحداث وأحوال من سبق من الأمم التي كفرت على كثرتها، وتعددها. وهذا من دقائق البيان في اختيار ما يناسب المقام.

ثم يؤكد عَزَّ وجل أن هذا الكتاب العظيم قد نزل باللغة العربية ذات البيان والإفصاح الواضح المبين ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ فهذا القرآن الذي أنزلناه عليك هو باللسان العربي الواضح الفصيح، ومؤكداً لوضوحه بصفة الإبانة ﴿ مُّبِينٍ ﴾ والتي تشمل الفصاحة الشاملة الكاملة التي لاعوج ولا مبهم فيها. مما يدل ويُثبت أنهم فهموه فهماً يمنع عنهم الشك والريبة، لقوة بيانه، ووضوح كلامه، إلى درجة الإعجاز والاستحالة من أن ينسجه ويقوله بشر. كما يبين هذا أن عظمة وقدرة وقوة اللغة العربية على الإيضاح بألفاظها المتنوعة، التي استوعبت كلام رب العالمين: بلاغة وفصاحة، ومراداً وغاية.

ثم ذكر وبين تبارك وتعالى أن هذا القرآن قد تم ذكره في الكتب السابقة، مما نُزِّلَ على المرسلين السابقين ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فإنه مذكور في كتب من سبق من المرسلين في الأمم السابقة. وبذلك فإنه يَنْضَمُ إلى قوة بيانه شهادة علماء أهل الكتب المنزلة قبله، بأن هذا القرآن مذكور في كتب المرسلين السابقين. ومعنى الزبر الكتاب. مما يبين فضل ومنزلة هذا القرآن العظيم، ومنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعرفه أهل الكتاب الذين بُشِّرُوا به. كما في سورة الصف ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

ثم يذكر تبارك وتعالى بصيغة الاستنكار امتناع من امتنع من مشركي قريش مع ما علموا وعرفوا من علماء بني إسرائيل بصحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ألم يكف هؤلاء المنكرين لرسولهم صلى الله عليه وسلم حجة وشهادة علماء بني إسرائيل على صحته ﴿ أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ بأن علماء بني إسرائيل يعلمون ويشهدون على صدقه وحقيقته بناء على ما في كتبهم من ذكر القرآن وهذا الرسول الكريم وصفته ومبعثه وأمته. ومن علمائهم الذين أسلموا وأخبروا بما في كتبهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه، الذي أسلم وأخبر بما في كتبهم. وفي هذا حجة عليهم لو كانوا يريدون الحق. ولكن الكبر والحسد كان مانعاً لهم من الاستجابة والطاعة.

ثم يعزز تبارك وتعالى القطع بأن امتناعهم هو امتناع جحود ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴾ ولو نزلنا هذا القرآن العظيم على بعض الذين لا يتكلمون العربية، ولا يعرفونها ولا يقدرون على نظم مثله من الأعاجم لكفر أولئك المشركون وما آمنوا به ﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ فقرأه الأعجمي على مشركي قريش بالعربية الفصيحة لكفروا به، وما آمنوا. وذلك بسبب عنادهم وقوة شركهم، وتعاليهم، وترفعهم عن الحق. مما يبين أن المتعالي يعاند الحق الواضح على أي وجه كان. وفي هذا كشف لحقيقتهم، وحقيقة نكرانهم، وما يبطنون من الكفر.

ثم يبين تبارك وتعالى معاقبته للمعاندين، وأن صفة عقابهم هو من جنس عنادهم ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ فعقوبة صدود هؤلاء الفسقة المجرمين عن الحق هو أن يُدخِل اللهُ تعالى في قلوبهم التكذيب والجحود والكفر في نفوسهم بحيث يتمكن منهم تمكناً لا ينفكون عنه، فتنتهي حياتهم على الكفر، فيكون عقابهم من جنس فعلهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ فيستمرون ويبقون على كفرهم ممتنعين عن التصديق والإيمان حتى يعاينوا العذاب حين يحل بهم، وحينها لا ينفعهم التراجع. ثم يبين تبارك وتعالى وقت مجيء العذاب ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فيأتيهم العذاب فجأة من غير ما يحتسبون ويتوقعون، فلا يشعرون إلا وقد وقع وحَلَّ بهم العذاب ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ فحين ذلك يتحسرون على ما كان منهم من الكبر والجحود والصدود والتعالي على رسولهم صلى الله عليه وسلم ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ هل يمكن إمهالنا، بأن يتأخر عنا العذاب حتى نتوب ونعود إلى الحق، ونستدرك ما فاتنا، ونُسلِم لرب العالمين، ونطيع الرسول صلى الله عليه وسلم.

فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أغر هؤلاء إمهالنا لهم، فاستعجلوا العذاب بعنادهم. وفي هذا تهكم بهم، إذ كيف يستعجلون العذاب بتماديهم في إنكار الحق الواضح المبين. فإن حالهم كحال من يعارض الحق الذي قد عرفه وأيقن به، وأدرك أن من يعارضه ويكذب به يصيبه العذاب والجزاء المهين. وبالتالي أصبح تصرفهم هو تصرف المستعجل للعذاب، ومشاهدة النتيجة. وفي هذا بيان لواقع حالهم وتماديهم في غيهم وطغيانهم. كما أن في هذا البيان للواقع ما يفيد التحذير والترهيب، وتصوير ما سيؤول إليه حالهم إن استمروا في كفرهم وعنادهم، فكان الواجب هو استدراك نعمة الحال قبل وقوع العذاب، ولكن الكبر والعناد مصيدة الهلاك. وفي هذا موعظة لكل أحد من الناس، بأن يستدرك واقع حاله بالطاعة والامتثال، قبل أن يقع في عقاب الله تعالى. وهذا التوجيه والبيان من الله تعالى هو رحمة لهم وللناس أجمعين؛ بما أوضح وبين لمن

عاند وكفر، وتمادى في المعاصي، فقد يختم الله تعالى على قلبه حتى تنتهي حياته، وذلك عقوبة دنيوية على التمادي في المعاصي، ليمتد أثرها على آخرته.

ثم يوجه الله سبحانه وتعالى سؤالاً بل أسئلة تستثير الفكر عن حقيقة الأجل والتأجيل للعذاب، ومدى فائدته لهم ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾ أفرأيت لو أخرنا عنهم العذاب، وأنظرناهم يتمتعون بالدنيا سنين من الدهر ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ ثم بعد هذا الاستمتاع الطويل جاءهم ما وعدنا به من العذاب، فهل ينفعهم ما تمتعوا به ذلك الزمن الذي أجلنا لهم فيه؟ فإنه لن يغنيهم هذا التمتع مهما طال بهم العمر، وكذلك لن يعودوا عن كفرهم وإن طال بهم الزمن، فهم مُصرُّون على الكفر مهما متعناهم بطيلة العمر، وبالتالي ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ فلن يجدي عنهم ما كانوا فيه من المتاع، فلن يؤثر فيهم ذلك التأخير والتأجيل، ولن يمتنع عنهم وقوع العذاب، فهو واقع بهم لا محالة، بما يفيد انقطاع انتفاعهم من التأجيل، وأن حالهم قد تقرر واستقر على ما هم فيه من عناد. مما يفيد على وجه العموم أنه مهما استمتع الإنسان بمتاع الدنيا ثم انقضى أجله، فلن يبقى شيء معه من ذلك الاستمتاع، بل إن متاع اليوم لا يبقى منه شيء في الغد. ففيه درس للتأمل في الأجل وإن طال، فإن لذائذ الدنيا لا تبقى، بل زائلة بزوال صاحبها، أو بانتهاء وقت الاستمتاع. فهي أسئلة تفيد التأمل والتفكر، كما أنها تفيد الاستنكار على من كان فهمه قاصر عن المآل، وحقيقة المسار، وحقيقة الآخرة، والحساب والجزاء.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

ثم يبين الله تعالى عدله مع العباد، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى لعباده أنه لم يهلك أمة إلا بعد أن بعث لهم من يُنذرهم وينصحهم، ويبين لهم الطريق الصحيح. فينفي تبارك وتعالى عن عدله الظلم لأحد، فما أهلكنا أهل قرية إلا بعد أن تم إنذارهم برسول يبين لهم الحق الذي يجب أن يسلكوه، فلم نهلك أحداً ظلماً. تنزه ربنا عَزَّ وجل عن الظلم، فسبحان الله العظيم الكريم الرحمن الرحيم، ثم يؤكد ذلك بأن في الإنذار تذكير لهم ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ فإن الإنذار هو تذكرة

لهم بما يجب عليهم، وأنه حجة قائمة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وبالتالي لم نكن ظالمين لهم في تعذيبهم بعد إقامة الحجة عليهم. فسبحان الله وتعالى وتنزه عن أن يظلم أحداً جَلَّ في علاه.

ثم ينفي تبارك وتعالى أن يكون تنزيل القرآن الكريم من خلال الشياطين ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فما تنزلت بالقرآن الشياطين على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يصح منهم ذلك، كما يقوله الجاحدون افتراء على الحق ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فلا يمكن أن يتولونه، ولا يصح منهم ذلك، ولا ينبغي أن يقومون به، لأنهم من أهل الضلال والفساد. وفي هذا رد على من زعم ذلك من الكفرة الجاحدين ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وليس ذلك من قدرتهم، فلا يستطيعون ذلك أصلاً.

ومن أسباب عدم قدرتهم على استماع القرآن العظيم ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فإنهم محجوبون عن سماع القرآن حال نزوله، ومرجومون بالشهب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه. لئلا يشتبه الأمر، وهذه من رحمة الله تعالى بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم(١) مما يبين عظمة القرآن الكريم وشرفه ومنزلته، وعظيم قدرة الله تعالى، وحكمته في تصريف الخلق والعباد والكون كله، وأن مُلكَه سبحانه وتعالى يسير وفق نظام محكم من الحكيم العزيز القدير.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى هول وعظيم عذاب من أشرك، من خلال توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ فبالرغم من أنه عليه الصلاة والسلام مُنَزَّهٌ عن الشرك فإن الخطاب توجه إليه عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحذر به غيره. يقول أنت أكرم الخلق عليَّ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك(٢) لإفادة غيره من العباد بقوة خطورة الشرك، وقوة عذاب من أشرك، فلو أنك يا محمد على منزلتك ومكانتك عندي، لو أشركت باتخاذك إلاهاً آخر غيري، فستكون من المعذبين، الذين يتحقق فيهم العذاب. فكيف بغيره إذاً. فهو من باب حث العباد على التوحيد، وبيان عظيم عذاب من أشرك. وفي هذا تهديد ووعيد شديد للمشركين ولمن أشرك من بعدهم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٢/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٣/٦)

ثم يوجه اللهُ تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى إنذار قومه بما أنزل عليه من القرآن الكريم ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فابدأ بالأقربين، وفي هذا ما يفيد التدرج في الدعوة، وأن تبدأ بالأقربين، لأنهم أولى الناس بالخير، ولأنهم يعرفونه حق المعرفة، صدقاً وأمانة وصلاحاً وأخلاقاً، فلا يعيبون عليه شيء. ثم يبين تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم كيف يكون تعامله مع من آمن به، واتبع شريعة الله تبارك وتعالى ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: تواضع للمؤمنين الذين اتبعوك بالإيمان والتصديق، وذلك بليونة الجانب لهم، والترفق بهم.

وقد تضمن التوجيه الكريم في دلالات بيانه دقائق من الإعجاز اللفظي ﴿ وَٱخْفِضْ ﴾ والخفض ضد الرفع، بما يفيد التنازل لهم، الذي يعطي دلالة اللين معهم ﴿ جَنَاحَكَ ﴾ وجناح الإنسان جانباه، وهو صورة للتعامل المتصف بالتواضع، وكذلك هو كناية عن الترفق والتواضع لهم. فسمى التعامل بالجناح، الذي هو كناية عن الترفق والتواضع لهم. وفي التوجيه بخفض الجناح: تماثل لفعل الطائر عند نزوله إلى مكانه، فيخفض جناحيه عند الهبوط، وعند احتواء صغاره، حيث يخفض جناحيه عليهم، وكذلك عند حفظ بيضه، إذ يُلملمه تحت جناحيه، فهي الصورة التي تعطي دلالة التغطية لهم بالتواضع، والنزول لهم، والاحتفاء والعناية بهم، والصبر عليهم، والمحافظة عليهم كما يحفظ الطير صغاره. ليتبين أن خفض الجناح هو صورة بلاغية، متعاظمة في دلالتها، ورحابة بيانها وسعة مساحتها، لتستوعب جميع حالات الالتفاف، والتواضع، والرحمة مع الحكمة في التعامل الذي يجمعهم ولا يفرقهم.

فإنها قاعدة عن كيفية احتواء الأعوان والإخوان، والمرؤوسين، والأصدقاء، والأقارب، وزملاء العمل والمهنة، فإنها وسيلة وغاية معبرة عن احتواء الآخرين. ولتعطي كذلك منهجية للمؤمن عن كيفية التعامل مع المؤمنين عموماً، وإذا كان هذا النبي الكريم، والرسول الأمين صلى الله عليه وسلم يأمره رَبُّهُ تبارك وتعالى بخفض الجناح للمؤمنين، فإنه من باب أولى أن يكون هذا الْخُلُق العظيم هو السائد بين المؤمنين في علاقاتهم، واحتواء بعضهم بعضا، فهو من أوجب الواجبات أن يخفض المؤمن جناحه لإخوانه المؤمنين الذين يتعامل معهم.

بل ورد التوجيه الكريم من الله تعالى بصيغة الأمر ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليفيد الوجوب. كما أن في تخصيص التوجيه بالأعلى مكانة ورتبة وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه يدل على عظيم الأمر في حق الأدنى، فتوجيه الصادق الأمين بذلك دلالة على عظيم ما وجه الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم، ودلالة على عظيم ذلك الأمر، ووجوب تحقيقه بين مَن هم أدنى منه، وكل أمته أدنى منه، وتحت لوائه عليه الصلاة والسلام. وعلة خفض الجناح هو أنهم اتبعوك فيما جئتهم به من

الحق ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليدل على منزلة الإيمان والاتباع. حيث وصفهم ووصف مبنى اتباعهم وسببه أنه الإيمان ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي هذا تنويه وإشادة بشأن الإيمان.

وفي المقابل يكون التعامل مع من عصى وأبا إلا الكفر، أن يكون بالبراءة منهم ومما يعملون ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإن عصوك بمخالفتك فيما جئتهم به من الإيمان والتصديق والتوحيد وفق شريعة رب العالمين ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فأخبرهم ببراءتك مما هم عليه من عمل. فتبرأ مما هم عليه من أعمال الشرك والبدع. فالتبرؤ قاصر على أعمالهم الكفرية، بما يفيد استثناء التعامل العام معهم، بما يحقق للنبي صلى الله عليه وسلم معاودة النصح لهم، والتواصل معهم لإحقاق مراده من إسلامهم، خاصة وهم عشيرته الأقربون كما سبق من الآية ما قبل السابقة. فلم يكن نص الآية الكريمة: هو البراءة منهم. بل ﴿بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فخص وقصر البراءة على أعمالهم، بسبب بقائهم على كفرهم ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ فإن عشيرتك الأقربون لم يستجيبوا لك أيها النبي عليه الصلاة والسلام، فتبرأ من أعمالهم. مما يبين حكمة المنهج الإسلامي في التعامل. وفي هذا فائدة جليلة في تعامل الإنسان مع من يختلف معهم، بأن يحصر الخلاف فيما اختلف معهم فيه، حتى لا يخسر الجوانب الأخرى من التعامل مع الغير، والتأثير الطيب عليهم. وهذا يدخل تحت سياسة الأمور بحكمة.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه إلى تحصيل القوة التي يدرك بها الخير ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وفوض أمرك وشأنك إلى ربك، معتمداً عليه فإنه هو ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنه العزيز الذي يقهر ويغلب ويذل كل عدو، ومع ذلك فهو ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يرحم ويعتني بمن اتبعه من المؤمنين. بل ويرحم العباد جميعاً، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويمدهم بما رزقهم من الأرزاق المتنوعة. ومن جميل السياق هو إظهار وبيان تلك العلاقة الترابطية بين التوكل وبين ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حيث قال تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فالمتوكل على الله تعالى يحتاج إلى القوة التي تدفع عنه ما يخافه ويهابه، فناسبت ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يقهر ويغلب كل باطل، ويحتاج المتوكل على الله تعالى ما يجلب له النفع الذي يخاف فوته وعدم تحصيله، فناسب ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يرحم عبده ويعطف عليه بالإنعام والخير، ويسخر له مراده من الخير.

ثم يعزز سبحانه وتعالى عنايته برسوله صلى الله عليه وسلم وذلك ببيان علمه ورؤيته له، وخص حاله في أعظم عبادة، فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فهو ربك الذي يراك حين قيامك لطاعته سبحانه وتعالى بالصلاة وغيرها في جوف الليل. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك. وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول في تأويل ذلك: أينما كنت[١] فجمعت دلالة القيام، القيام لصلاة الليل باعتبار أن القيام يطلق على صلاة التهجد ليلاً، وشملت دلالتها كذلك عموم القيام الذي دل على الحركة، وهذا من غزارة البيان في القرآن الكريم، الذي استوعب المراد بجميع أحواله.

وقد أفادت دلالة ﴿ يَرَىٰكَ ﴾ المتابعة التي لا يغيب منها شيء عنه عَزَّ وجل، مع تخصيص الحركة التي تمثل الأداء والقيام بأنواعه. والتي تفيد معيته جَلَّ جلاله معك، وعونه لك، بما يزيد النبي صلى الله عليه وسلم طمأنينة في النفس. كما يضيف سبحانه وتعالى إلى تلك الرؤية للنبي صلى الله عليه وسلم أيضاً رؤيته له وهو مع المؤمنين في صلاتهم جماعة ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ويراك حين صلاتك في الجماعة، فيرى سجودك وركوعك وقيامك معهم، بما يفيد العناية وقوة المعية لرسوله صلى الله عليه وسلم. وهو يرى سبحانه وتعالى كل أحد من خلقه، ولا يغيب عنه شيء البتة. ولكن للتخصيص مزية ومزيد عناية وفضل. وفي تخصيص الرؤية للنبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة مِنْ بين جميع أحواله التي لا تغيب عن الله تعالى ما يدل على فضل ومنزلة الصلاة، إذ خصها بالرؤيا تعظيماً لشأنها، ومدحاً وثناء لمن قام بها في جوف الليل تهجداً بها، وكذلك ما يقوم بها في جماعة المصلين. ومن قوة منزلة الصلاة ورفعتها، أن أفرد صلاة التهجد بذكرها ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ وأفرد صلاة الجماعة بذكرها منفردة ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وذلك لجلالة قدر كل صلاة. مما يدل على عظمة الصلاة وأهميتها ومنزلتها التي تُوجب على المسلم العناية بها عناية فائقة.

ثم ختم تبارك وتعالى توجيهه للنبي صلى الله عليه وسلم بصفتين عظيمتين له تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إن ربك هو السميع لكل شيء، والعليم بكل شيء، وليس ذلك لغيره سبحانه وتعالى. فغيره من خلقه يسمع ويعلم أشياء محدودة محددة، ويقصر ويغيب عنه أشياء لا حدود لها من كثرتها. وفي علاقة هذه الآية الكريمة بما قبلها، ما يعزز ويقوي شأن وإرادة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعزز قوة توكّله على ربه جَلَّ جلاله، فإن الله تعالى يسمعك، ويعلم شأنك، وما يدور في ذهن أعدائك تجاهك، فنمكر لك، بما يمنع عنك ما

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٦٦٥-٦٦٦)

يدبرونه من شر. فكن مطمئناً أيها النبي. مما يدل على عناية الله تعالى وحفاوته برسوله محمد صلى الله عليه وسلم. كما يعلم المؤمن بأنه الله تعالى لا تخفى عليه خافية، فاعبدوه وأخلصوا له، وتوكلوا على ربكم السميع العليم.

وقد نوه سبحانه وتعالى إلى عظيم قدرته بأنه جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فإن ربكم سميع، يسمع كل شيء، فلا يخفى عليه صوت، ولا ناطق، كما أنه عليم بكل شيء، فلا يخفى على علمه عَزَّ وجل شيء، بل ورد ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد كمال السمع والعلم إلى أقصى الاحتواء، بحيث لا يفوته شيء. بل ورد كذلك بصيغة الحصر والقصر على أن هذه صفة من الكمال لا يشاركه فيها أحد أبداً سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو وحده الوحيد في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، لا يشاركه فيها أحد. بما يفيد من كانت هذه صفاته، فلن يخفى عليه أحد، في استغاثته واستعانته وحاجته، وفي سعيه، وفي طلبه، ومرضه وجميع حاجاته. فتعاملوا مع ربكم بما أخبركم به عن نفسه عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان أن تصدر ذلك البيان والإرشاد بنون التوكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ الذي التحقت بضمير الإشارة له سبحانه وتعالى، ثم حُصر الاسم والصفة الكاملة التامة له فقط دون غير ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ﴾ لا غيره سبحانه وتعالى ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فليس لأحد غيره له القدرة بدقائق المسموع والمعلوم، فيسمع ويعلم كل شيء، فلا تخفى عليه خافية تبارك وتعالى.

مما يبين افتقار العبد لربه ليذود عنه الغوائل وكل ما يفسد عليه أمره وشأنه. وفي هذا تعليم وإرشاد للمؤمنين بالتحصن والتوكل على الله تعالى، وأنه لا مُحصِّن لهم من كل شر إلا بالله تعالى، فليلتجئوا إليه سبحانه وتعالى، ويتحصنوا به، وفق ما علمهم. بل قد وَرَدَ تأكيد وتعظيم شأن الالتجاء إليه سبحانه وتعالى ببيان أنه هو فقط السميع العليم، لإفادة قوة من تستعينون وتتضرعون وتلتجئون إليه عَزَّ وجل. فنعوذ بالله السميع العليم من كل شر.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عباده عن أمر الشياطين، وعن من تتسلط عليهم، وذلك بسؤال استفهام، يفيد التقرير بحقيقة نزولها وعلى من تتنزل ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ هل أخبركم أيها الناس عن الذين تتسلط عليهم الشياطين فتتنزل عليهم ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ وفي هذا السؤال استثارة وتشويق لمتابعة الجواب، وفيه رد على من قال من المشركين المكذبين أن الشياطين تتنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم. فيرد عليهم مخبراً ومحذراً ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ فإن الشياطين تتنزل على كل إنسان متصف بصفة الإفك ﴿ أَفَّاكٍ ﴾ أي: كثير الكذب في أقواله وأفعاله، حتى أصبح صفة له، وكذلك متصف بصفة الأثيم ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي: كثير الإثم، فهو فاجر، كثير المعاصي والذنوب. كالكهنة، ومن سلك مسلكهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى ﴿ كُلِّ ﴾ هنا مستعملة في معنى التكثير[١] بل إن صيغة ﴿ أَفَّاكٍ ﴾ تفيد المبالغة في الكذب، فاصبح سجية له.

فإن من وسائلهم أنهم ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾ أي: يُلقون ما يسرقونه مما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى المتصفون بالكذب والفسق، من الكهنة والسحرة وغيرهم ممن اتصف بصفة الكذب وارتكاب الآثام. وجاء بيان الاستماع بقوله عَزَّ وجل في وصفهم ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ الذي يوضح شدة الإصغاء من الشياطين، بغية التحري والالتقاط، ثم يُلقُونهُ على الأفاك الأثيم. وذكر الطبري رحمه الله تعالى قول مجاهد رحمه الله تعالى: عن ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أن الشياطين ما سمعته ألقته على كل أفاك أثيم، وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: الشياطين تسترق السمع، فتجيء بكلمة حق، فيقذفه في أذن وليه: قال: ويزيد فيها أكثر من مائة كذبة[٢] ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾ وأكثر هؤلاء الشياطين كاذبون فيما يلقونه على أتباعهم.

ويأتي معنى البيان بأن أكثر هؤلاء المتصفين بالكذب والآثام هم كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنهم الشياطين. والثاني: الكهنة[٣] وهاتان الدلالتان استوفت مصدر الكذب، سواء كان من الشياطين أو كان من الكهنة والسحرة وغيرهم من الفساق، فإنهم كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين، لأن الشياطين تضم إلى ما يسترقون

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٢٤/٨)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٢/١٧)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٤/٦)

أكاذيب كثيرة. إضافة إلى ما يضيفه الكهنة على ذلك من الكذب والضلال. فاستوفى قوة البيان في سياقه كلا الصنفين من غير تكرار، وهذا من لإعجاز البياني في القرآن العظيم.

كما أن في هذا البيان تقرير من الله تعالى بأن الشياطين لا يمكن تتنزل على من اتصف بالصدق، والبعد عن الآثام من المسلمين، فكيف بالرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه يستحيل ذلك عليه. وأنه منزه عليه الصلاة والسلام من ذلك، فهو الصادق الأمين، وينزل بالوحي عليه الروح الأمين، جبريل عليه السلام. وقد زكاه ربه تبارك وتعالى، واختاره رسولاً للعالمين، بل وخاتمتهم، وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن برَّأ ونزه الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن نزول الشياطين عليه، يُبرؤه وينزهه أيضاً عن حياكة الشعر، فقال تعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فمن شأن الشعراء أن أهل الغي، الذين ضلوا عن الحق يتابعون ويجارون أهل الشعر في أقوالهم التي مبناها الضلال والكذب في الوصف، فيزيغون عن الحق نتيجة تأثرهم بكلامهم، وأما أهل الهدى والرشاد فلا يتأثرون بأشعارهم. والمقصود بالشعراء هم أهل الفسق والباطل. وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن المقصود بقوله تعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ ﴾ التي مفردها شاعر: أنهم شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس، ومردة الشياطين، وعصاة الجن. وذلك أن الله تعالى عَمَّ بقوله ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فلم يخصص بذلك بعض الغواة دون بعض، فدل ذلك على جميع أصناف الغواية التي دخلت في عموم الآية[١] وسيأتي بعد هذا التعميم استثناء من الله تعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى سبب وعلة الإغواء ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ فإنهم في كل جانب من جوانب فنون الكلام، والأحداث والأمور يخوضون فيها بالكذب تارة؛ وبالصدق تارة، وبالخلط بينهما تارة أخرى. فليس هناك ضابط من الحق يسيرون عليه. وورد التعليل لهم بصيغة الاستفهام التقريري ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الذي يقرر ما هم عليه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ببصيرتك وفكرك وفهمك ﴿ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ أي: في كل ناحية من نواحي فنون الكلام وأمور اللغو يسيرون فيه مسار الهائم الذي لا يعرف نهاية ما اتجه فيه وإليه. كما أن في وصف موقع الهيام أنه في كل واد، ما يدل على التنوع والكثرة، لأن ﴿ فِي كُلِّ ﴾ تدل على الكثرة والتنوع، وكلمة ﴿ وَادٍ ﴾ تدل على السعة والامتداد فيما هم فيه، لأن الوادي يدل على السعة والامتداد. وبإضافة الوادي إلى جملة ﴿ فِي كُلِّ ﴾ ما يعطي دلالة الكثرة والتعدد والتنوع، لأن الأودية

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٦/١٧)

متنوعة في سعتها، وطول امتدادها، وبما يفيد تعدد وكثرة وسعة اللغو وتنوعه بين الحق والباطل، فتارة في المدح كذباً، وتارة في خلط الحق بالباطل، وتارة بالهجاء المنكر، وأحياناً في وادي الغزل الذي لا حقيقة له، فيهيمون فيه من غير حقيقة، بل ويفتنون غيرهم به، وأحياناً يسخرون مما ليس فيه سخرية، وتارة يتألمون ويحزنون كذباً وتمظهراً، وتارة يهيمون في الخيال الذي لا صحة له. مما يفيد التنوع الذي لا يلتزمون فيه بالحق. فكل هذه المواصفات كانت سبباً في اتباع أهل الغواية لهم ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ والغاوون هم: أهل الغي والضلال.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن حقيقة كذبهم ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فأقوالهم في الشعر تخالف أفعالهم، فقد يتحدث عن شجاعته، وهو ليس كذلك، وقد يتحدث عن صنف ونوع من مكارم الأخلاق؛ حتى يفتتن غيره به، وهو أبعد ما يكون عن ذلك. وربما يحضون غيرهم على ما لا يقومون به ولا يمتثلون به. ويتباهون بما ليس منهم ولا فيهم. وفي هذا كشف وتعرية للبون الشاسع بين ما يقولونه من شعر وبين واقع أفعالهم. وبالتالي على العاقل ألا يُصدِّق فيهم ما يقولون.

ثم استثنى سبحانه وتعالى من الشعراء الغاوون أهل الإيمان والصدق، الموصوفون بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ فهناك من تمنعهم عقيدتهم، وإيمانهم وخوفهم من الله تعالى من أن يخوضوا ويهيموا في اللغو، وأن يقولوا ما لا يفعلون، وهم المتصفون بأربع صفات. الأولى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أهل الإيمان، المصدقين بأركانه، الذين يؤمنون بأنهم محاسبون من ربهم على ما يقولون. والصفة الثانية ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ وأدَّوا العبادات، وتمثلوا بأركان الإسلام وأخلاقه. والصفة الثالثة لشعراء الحق: ﴿ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ فإنهم مُتَّصِفُون بكثرة ذكرهم لله تعالى. مما يفيد أن في كثرة الذكر مانع من مخالفة ربهم الذي يذكرونه كثيرا. وبالتالي لا يهيمون في أودية الباطل، ويحذرون منها، لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ومجزيون. والصفة الرابعة: ﴿ وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أي: ينتصر بشعره على من ظلمه بهجاء أو نحوه، ويدخل في ذلك انتصاره لأصحاب الحق بالشعر الذي يقوي حقوقهم، كأن ينتصر للدين، وللحاكم العادل، وللعالم الفاضل، وللمظلوم.

كما كان يقع من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم، كحسان بن ثابت رضي الله عنه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر الذي يتداوله الناس إلى يومهم هذا. فيصبح شعرهم من الأعمال الطيبة

الصالحة، لانتصارهم للحق، وقمع الظلم، ومدح الدين والذب عنه، والانتصار من أهل الكفر والبدع، والحث على محاسن الأخلاق، وذم مساوئها، وتربية النفوس بجميل الكلام على الدين ومكارم الأخلاق.

ومن دقائق البيان أن هذا الانتصار ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ فليس ابتداء الظلم منهم، بل دفاعاً. ليدل على عدالة الوصف، ودقة البيان الكريم في ترتيب ألفاظه بما يحقق المراد بدقة معجزة، تُثبت أن هذا الكلام هو كلام رب العالمين المعجز في سياقه وتراكيب ألفاظه، وقوة بيانه ودلالاته، وجميل أهدافه وغاياته، وعظيم تشريعه، وفصله بين الحق والباطل.

ومن دقائق الفوائد أن السياق الكريم بدأ بالحكم العام وهو ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴾ فهذا حكم عام، ثم أُلْحِق به السبب الذي أفاد بأن القاعدة هي في حال الشعراء الذين يهيمون في أودية الإغواء ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴾ ثم استثنى من القاعدة الكلية العامة نوع واحد، وهم ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ فورد التعميم أولاً لأنه الأصل، باعتبار كثرة الأمم، المليئة بالشعراء، وأكثر الناس هم الكفار والفُجَّار، فورد الحكم عاماً على سبيل الأكثرية، ثم استثنى من القاعدة الكلية، والحكم العام نوعاً واحداً، وهم الأقل عدداً. فاستوعب الحكم الجميع لكثرتهم، وبالتالي يعتبر الحكم على الأصل. ثم استثنى من الأصل القلة، وهم المؤمنون المتصفون بما وصفهم الله تبارك وتعالى. وهذا من دقائق التسلسل البياني وتدرجه البديع، والذي يتحقق به كمال المقصود بأدق البيان وأعذبه.

ثم ختم الله تبارك وتعالى سورة الشعراء بقوله الذي يهدد به الظالمين ﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ فسوف يتبين للذين ظلموا بكفرهم وشركهم وبغيهم، وبغيره من أنواع الظلم أي مرجع يرجعون إليه، وأي معاد يعودون إليه بعد مماتهم. فإن مصيرهم النار وبئس المصير، فإنه محطة عودتهم، وأنه هو الذي يعودون إليه. فسوف يعلمون كيف يكون حالهم بين يدي الله عَزَّ وجل ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ أي: مرجع ومَرَد يرجعون إليه بعد موتهم، وهو العذاب الأليم. بما يفيد التهديد والتحذير من عموم الظلم، سواء كان كفراً، وشركاً، أو بدعاً، أو كان ظلماً بأخذ الحقوق وغمطها. فسيعلمون أي مصير يصيرون إليه، وهو العذاب

الأليم المنصف. قال القرطبي رحمه الله تعالى أي: أن مصيرهم إلى النار. وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع. والفرق بين المنقلب والمرجع: أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها، فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعاً. ذكره الماوردي رحمهم الله تعالى[١] وهذا من دقائق ألفاظ البيان في القرآن الكريم الذي ختم الله تعالى به سورة الشعراء.

تم بحمد الله إتمام سورة الشعراء، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٠٣)